الفصل الثالث

مؤتمر
قمة الدار
البيضاء

إدارة الصراع العربى - الإسرائيلى

إدارة الصراع .. ونماذج الإدارة

المبحث الأول: عملية إدارة الصراع وخصائصها

المبحث الثانى: نماذج لإدارة الصراع العربى - الإسرائيلى

المحور الأول : نموذج الإدارة فى عهد عبد الناصر

المحور الثانى: نموذج الإدارة فى عهد أنور السادات

المحور الثالث: تقويم لنموذجى عبد الناصر والسادات

المحور الرابع: نموذج الإدارة عند مناحيم بيجن

المبحث الثالث: ستة مبادئ صهيونية لم تتغير

obeikandl.com

المبحث الأول

عملية إدارة الصراع .. وخصائصها

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

المتتبع للفقه السياسى العربى يلحظ بوضوح نوعًا من الخلط بين المفاهيم الأساسية، بحيث ينتهى القارئ بنوع من الاشتباك بين العناصر المختلفة التى يتكون منها تحليل أى ظاهرة. هذا الاضطراب الفكرى ـ فى واقعنا السياسى ـ قاد إلى عدم وضوح الرؤية بالنسبة لحكامنا والمسؤولين عن مستقبل ومصير هذه الأمة. أحد تطبيقات ذلك الخلط بما ترتب عليه من نتائج مفجعة يرتبط بما يسمى إدارة الصراع وعلاقة عملية إدارة الصراع بما يسمى عملية صنع القرار(1).

فلنحاول فى عجالة سريعة أن نحدد المرتكزات الأساسية بوضوح.

مراحل النشاط السياسى ـ وبصفة خاصة فيما يتعلق بالتعامل الخارجى ـ تفترض التمييز بين أربعة مستويات:

الأول ـ صنع السياسة.

الثانى ـ صنع القرار السياسى.

الثالث ـ تنفيذ القرار.

الرابع ـ إدارة الصراع المرتبط بذلك القرار.

يقصد بصنع السياسة: كل ما له صلة بعملية البناء المجردة للتعامل، وهى تدور حول

(1) عملية صنع القرار، أو أخذ القرار، له أسلوبه ومنهجه، ولا يؤخذ القرار دون دراسة أو فهم، ولكن يقول أستاذ الاستراتيجية اللواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل فى كتابه «النظام السياسى فى إسرائيل» مرجع سابق عن عملية أسلوب صنع القرار، فيقول: «لئن كانت الدولة ـ أية دولة ـ هى مؤسسة سياسية كبرى، تسعى نحو بلوغ أهداف بعينها، تعلقت بها آمال شعب هذه الدولة، فإن تحقيق أى من هذه الأهداف لابد من إرادة، تعبر عنها السلطة السياسية، فى شكل عملية مستمرة لصنع واتخاذ القرارات ومتابعة تنفيذها، والإعداد للتعامل مع موقف أو صنع جديد من خلال اتخاذ قرار آخر... وهكذا» ص 225 المرجع السابق.

الإدراك والتصور لعناصرمعينة، حيث تتحدد بوضوح وصراحة، ولو فقط من خلال التصور، ولكن على أساس الإمكانيات المتوفرة والقدرات المتاحة ثلاثة أشياء: الأهداف، وترتيب الأهداف، وتحديد البدائل لكل هدف، بمعنى أن هناك أهدافًا قومية، وهذه الأهداف فيما بينها تملك مستويات متعددة ـ من حيث الأهم فالأقل أهمية ـ وكل هدف له بدائل، أى له متغيرات، كل منها يمكن أن يحل محل الهدف الأصيل ـ إن لم يكن من الممكن تحقيقه. ويرتبط بهذا التحديد لدوائر التعامل، بمعنى أن هناك حدًا أقصى لما نريده ـ يجب ألا نتجاوزه فى الظروف المعتادة ـ وحدًا أدنى لا يجوز أن نتجاوزه مهما كانت الظروف. صنع السياسة بهذا المعنى هى عملية بناء مجردة، ترمى لتحديد تصور نظرى لأهداف الحركة السياسية وكيفية تحقيق تلك الأهداف، سواء من حيث أدوات التعامل أو مراحل التعامل، ومن ثم فإننا عندما نتحدث عن صنع السياسة، فإننا نظل دائمًا فى دائرة ذلك الذى يجب أن يكون. صنع السياسة بهذا المعنى، عملية مكتبية بعدها المُنَظِّر والأيديولوجى، وبتوافق تام مع الاستراتيجى العسكرى.

عملية صنع القرار : هى نقل تلك الأهداف المجردة إلى حيز الواقع، بمعنى التعامل الفعلى مع الأحداث، التعامل الفعلى مع الأحداث ومع التطورات، يعنى خطوات جزئية متتابعة مدروسة، تقود فى نهاية المطاف إلى تحقيق الهدف الكلى الشامل، الذى هو محور عملية صنع السياسة «القرار»، ومن ثم هو جزئية تعبر عن الارتطام مع الواقع، بقصد تحقيق الهدف المجرد. صنع القرار هو اختصاص الحاكم الذى يجب أن يستعين بأعوانه، ولكنه يظل هو وحده صاحب الكلمة الأولى والنهائية.

تنفيذ القرار يعنى إعداد الإطار الدولى والإقليمى والداخلى لاستقبال القرار، بحيث يتم تحقيق أكبر قدر من العائد على تنفيذ القرار، وأقل قدر من التكلفة، وهذا ما يسمى باقتصاديات الحركة. فتنفيذ قرار مكلف دون عائد أو حيث عائده محدود وقليل، لا يعبر عن حصافه، ولكن عن عدم صلاحه. لا يجوز أن يترتب على أى قرار سياسى ـ وبصفة خاصة فى التعامل الخارجى ـ أن يقود إلى إضعاف الدولة، على سبيل المثال: مقتل سفير دولة عظمى، لو قوبل بإعلان حرب على تلك الدولة، يعنى سذاجة من جانب حاكم تلك الدولة. عملية تنفيذ القرار أو ما يسمى فى بعض الأحيان تنفيذ السياسة الخارجية، تبرز خطورتها حقيقة فى التعامل عبر الحدود القومية، حيث إطار التعامل لا يخضع لتحكم صانع القرار، وحيث يكون أمام صانع القرار أكثر من إدارة واحدة لتنفيذ أهدافه.

تنفيذ القرار وإدارة الصراع :

تنفيذ القرار يقود إلى ما يسمى عملية إدارة الصراع، وذلك بصفة خاصة عندما تتعقد مشكلة تنفيذ القرار، أو يرتبط به صراع متعدد الأبعاد والدوائر، ومن ثم يصير على الحاكم

واجب التنويع بين القرارات والأدوات والتتابع والإعداد للموقف ـ وبصفة خاصة فى السياسة الخارجية ـ حيث تبرز متغيرات مختلفة عن السياسة الداخلية، وأهمها:

أولا ـ بسبب تعدد أدوات تنفيذ القرار، صانع القرار الخارجي يجد أمام نفسه أكثر من إدارة واحدة لتنفيذ أهدافه ابتداء من التفاوض والاتصال إلى القتال وشن الحروب بصورها ونماذجها المتعددة.

ثانيا ـ بسبب عدم خضوع التعامل الخارجي لأى قواعد أخلاقية، بحيث إن الحاكم من حقه الكذب والمناورة فى أسوأ صورها ـ حيث التقاليد التى تعيشها الأسرة الدولية تسمح بذلك، بما فيه ما يسمى الحرب النفسية وغسيل المخ.

ثالثا ـ صعوبة إعداد الإطار الخارجي ـ الذى يتتابع من إطارٍ لدول الجوار ـ ثم النظام الإقليمى دون الحديث عن الأسرة الدولية.

كذلك يجب أن نضيف أن التعامل الخارجى فى حاجة إلى معركة من نوع معين، لا يسلكها الحاكم لمجرد نجاحه داخليًا. وبصفة خاصة فى الدول المتخلفة، حيث الحاكم ـ فى أغلب الأحيان وهو يعبر عن المجتمع القومى ـ لم تُقدّر له المعرفة الحقيقية والعلمية بالعالم الخارجى، ومن ثم فى حاجة إلى **خبرة العلماء**[1]، وهذه فى ذاتها **مشكلة** أخرى. لقد أثبتت الخبرة المعاصرة ـ فى الدول المتخلفة ـ صعوبة التعامل بين العالم والقائد، الأول لا يحترم الثانى، وهذا الأخير مملوء بعقد النقص فى مواجهة الأول. ونقصد بطبيعة الحال العالم الحقيقى، حيث إن العالم الثالث بدوره قد فتح الباب واسعًا للفوضى العلمية، حيث لا توجد أى ضوابط حقيقية للولوج إلى أسرة العلمية القومية، والحديث بهذا الخصوص ذو شجون ليس هذا موضعه.

الذى يعنينا أن نُذكّر به، هو العلاقة الوثيقة بين صنع القرار وإدارة الصراع، دون أن يعنى ذلك الخلط بينهما.

القرار هو أحد أدوات إدارة الصراع، الأول، أى القرار لابد وأن يسبق إدارة الصراع ، ولكنه لابد وأن يتتابع مع عملية إدارة الصراع، حيث بعبارة أخرى هناك ديالكتيكية معينة، تربط بين كلا العنصرين برابطة وثيقة تجعل كلاً منهما مقدمة ونتيجة للآخر. القرار هو جزئية فى إدارة الصراع، وهو خطوة تكتيكية تتدرج فى عملية إدارة الصراع، ولكنه كذلك قد يوجد مستقل عن عملية إدارة الصراع.

---

(1) إن الحاكم الذى يجيد عملية صنع القرار واتخاذه يجب أن يعتمد على العلماء المخلصين ـ أهل الاختصاص ـ العاملين بالشريعة فى الاستماع إليهم، وأخذ مشورتهم، أما النظام العالمى الجديد قد فصل بين الدين والسياسة، فجعل الحاكم فى واد، والعلماء والدين فى واد آخر. وهذا ما عبّر عنه الدكتور حامد ربيع بأنه مشكلة.

ما الذى يجب أن نقصده بإدارة الصراع؟

هو كل ما يتصل بعملية الالتحام بين القائد والموقف، وقد تحدد ذلك الموقف زمانًا ومكانًا وموضوعًا، لتحديد أهداف معينة ـ من خلال التحكم فى القدرات الذاتية والجماعية واستغلال الفرص التى يتيحها التطور العام ـ لإطار التعامل بين القائد والموقف، بعبارة أخرى: إدارة الصراع تعنى:

أولا ـ أن هناك قائدًا أو قيادة.

ثانيا ـ أن هناك موقفًا له خصائص معينة.

ثالثا ـ أن هناك أهدافًا محددة قد قُنِّنتْ مسبقًا.

رابعا ـ أن القائد أو القيادة قادر من خلال التحكم فى قدراته على تحقيق تلك الأهداف كلاً أو جزءًا.

القرار هو : أداة إدارة الصراع، ولكن ليس هو الصراع. القرار بحرب، أو بالدخول فى مفاوضات هو أداة فى إدارة الصراع، وليس هو عملية إدارة الصراع، إنه مركبة أمتطيها لأصل إلى موقعٍ معين، ولكنه ليس الوصول إلى ذلك الموقع.

الصراع العربى الإسرائيلى لا يخرج عن هذه القاعدة.

الخصائص:

سبق أن رأينا أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى يملك خصائص معينة، ورغم أنه صراع إقليمى، فهو قد اتسع وامتدت آفاقه تدريجيًا ليصير صراعًا دوليًا، رغم ذلك فإن الأطراف الفاعلة فى هذا الصراع هى فقط وأساسًا، إسرائيل من جانب، ومصر من جانب آخر، وَصْفه بأنه عربى ـ إسرائيلى، لا يمنع من أن الجانب العربى فى ذاته يمثل ثقل المساندة. إن قوته لا تَنْبُع إلا من توظيفه من جانب الإرادة المصرية. ومن هنا يبرز عمق المأساة عندما تُشل الإرادة المصرية، أو تتدخل فى تكوينها عناصر تسعى جاهدة إلى إفسادها.

ولنقلها، ونعلنها بصراحة وهى كثيرة كذلك، رأينا أنه رغم الحديث المتتالى والمتكرر عن عملية صنع السلام فى المنطقة، فإن هذا الإدراك يتجاهل طبيعة هذا الصراع وينفى جوهره، بل هو هذا الحديث يعنى كذلك عدم الفهم لمعنى إدارة الصراع.

كيف يجب أن يدار الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وبصفة خاصة عقب مؤتمر قمة الدار البيضاء؟ ولنتذكر أن أزمة لبنان وأزمة الخليج العربى، وأزمة الانتفاضة الفلسطينية ليست جميعها سوى عناصر فى هذا الصراع. ولنتذكر أن المنظمات الإقليمية الجديدة بدورها يجب أن توظف فى هذا الصراع وإدارته كيف؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن

بخصوصه تصوراً واضحًا ومقننًا.

هذه التساؤلات تفترض عدة مقدمات يجب أن نسلم بها:

الأولى ـ أننا ننطلق من المصالح العربية، أى أننا نقف مع الطرف المتعامل العربى، وأن هذا لا يعنى أنه لا توجد تصورات أخرى تبعًا للطرف المتعامل، سواء كان إسرائيليًا أو إحدى القوى العظمى.

الثانية ـ أننا نجعل محور التحليل هو ما سبق وذكرناه، أن الطرف المتعامل العربى يتمركز حول مصر كمقدمة لعربة الصدام، تسحب خلفها جميع الدول العربية، ولا تلقى على أى دولة عربية أخرى مسؤولية قيادة الصراع، مهما كانت نتائج وتضحيات الصراع.

الثالثة ـ أننا ننطلق وقد أضحت هناك مجموعة من الحقائق التى يجب أن نعترف بوجودها بغض النظر عن قبول أو رفض السياسة التى قادت إليها، وبصفة خاصة اتفاقيات «كامب ديفيد» وما ارتبط بها، وما لحق بها من مواقف سياسية. إنها وقائع قائمة لا يمكن إلغاؤها.

الرابعة ـ أننا نجعل محور العرض هو التحليل العلمى الجامد بلغة الواقع، ولكن بصراحة العالم، وليس بلغة المزايدات التى برعت فيها فى الفترة الأخيرة أوساطنا التى تزعم بأنها علمية.

سبق أن ذكرنا أن إدارة الصراع، تعنى قيادة أولاً، وموقفًا ثانيًا، وقدرات ثالثًا، وأهدافًا واضحة رابعًا. وسوف نتعرض لكل ذلك بدقة وتفصيل. ولكن يعنينا مسبقًا أن نذكر بأن القدرات التى يجب أن يتلاعب بها القائد أو القيادة هى خمسة:

أولا ـ الجيش أو الإدارة العسكرية.

ثانيا ـ الدبلوماسية أو الجهاز الدبلوماسى.

ثالثا ـ الإعلام وكل ما يتصل بعملية جمع المعلومات.

رابعا ـ القوى الداخلية.

خامسا ـ القوى المتعاطفة أو المؤيدة صاحبة المصلحة فى النطاق الخارجى.

ولنتذكر ـ ونحن بصدد هذه المعلومات الموجزة التى هدفنا منها أن تكون المفاهيم محددة بطريق علمية ـ أن الجيش ليست وظيفته فقط أن يقاتل، بل إن وظيفته أيضًا أن يمنع القتال، وهذا ما يسمى بالوظيفة الردعية للأداة المقاتلة، أضف إلى ذلك: أن القتال بين الشعوب لم تعد فقط صورته الصدام المسلح ـ الذى يأخذ صورة جيوش متكتلة كل منها يقف فى مواجهة الآخر ـ فهناك أيضًا تشجيع القلاقل المحلية من جانب، دون الحديث من

جانب آخر عن الحرب النفسية، حيث يصير التعامل مع العدو من داخله، ورغم أن أسلوب التعامل هو دائمًا القتال والصدام المسلح. أضف إلى ذلك: أننا ونحن فى مجال الحديث عن إدارة أزمة لها طابع خاص ـ فضلاً عن أنها أزمة خارجية وليست أزمة داخلية ـ فإن الدبلوماسية والعمل الدبلوماسى يصير المعبر الحقيقى للوصول إلى الخصم، بل إنه يصير أيضًا الحائط الأخير للحماية الذاتية.

الإعلام يجب أن يُفَهَّمْ بأوسع معانيه، إنه يقدم المعلومات السابقة على اتخاذ القرار، وهو يخلق الاتصال مع الأعداء، وهو يسهم فى خلق الموقف الصالح لإدارة الأزمة بالدعاية الواعية والذكية، وهو المطرقة الأساسية التى تستخدم فى تحطيم نفسية الخصم، أما عن القوى الداخلية، فعلينا أن نُميّز فيها بوضوح بين عناصر ثلاثة:

نخبة حاكمة هى الدرع الأول لحماية القائد للصراع الذى يسير على رأسها ويسعى إلى تحقيق الأهداف الحقيقية للمجتمع السياسى، التى لا يعبر عنها بالصراحة الحقيقية، إلا هذه النخبة الحاكمة، ثم القوى المساندة للقيادة، حيث تمرح فى داخلها تلك القيادة وبصفة خاصة ذلك القائد والتى تصير علاقته بها كعلاقة السمك بالماء لو خرج منها لانتهت حياته.

ثم قوى معارضة يجب لحظة الصراع القومى أن تنصهر بدورها مع هذه القوى المساندة، ورغم جميع الخلافات، بحيث يتحول المجتمع إلى قبضة ضاربة فى بوتقة واحدة من التماسك، ولو المؤقت تسير فى اتجاه واحد وتضرب فى موقع واحد، حيث الخصم الذى لا موضع بخصومته لأى شك أو التباس.

فإذا انتقلنا إلى القوى الخارجية؛ لكان علينا أن نُميّز أيضًا بين القوى المتحالفة، أى بتلك المتوافقة مع حركة قائد الأزمة فى ترابط تام، **ثم قوى إقليمية** يتعين على إدارة الأزمة أن تخضعها لعملية جذب مصلحية كحد أدنى فى التعامل، **ثم قوى دولية** قد لا تنتمى إلى المنطقة، ومن ثم يصير جوهر السياسة كحد أدنى هو تحييد مواقفها إن لم يكن خلق عناصر المصلحة المشتركة مع أهدافها فى المنطقة.

هذه هى الدلالات الحقيقية لمفهوم إدارة الصراع.

أيضا الصراع العربى ـ الإسرائيلى، صراع يخضع لمنطق إدارة الأزمات. لنستطيع أن نفهم هذه العملية ـ وكيف تجب إدارة الصراع من الجانب العربى، لابد وأن نبدأ فنتابع النماذج التاريخية التى تقدمها لنا خبرة الأعوام العشرين الماضية، قبل أن نطرح الموضوع من منطلق تنظيرى، الأمر الذى لابد وأن يقودنا من جانب إلى التعرض لمستقبل الصراع واحتمالاته من جانب آخر إلى مؤتمر القمة، وموضوع ذلك المؤتمر من إدارة هذا الصراع.

النماذج التاريخية لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى :

لو توقفنا أمام فترة العشرين عامًا الماضية، والتى تمثل إلى حد معين موقف إقليمى ودولى يكاد يعكس خصائص واحدة، أو على الأقل متشابهة، لاستطعنا أن نُميّز بين أربعة نماذج لإدارة هذا الصراع تتصف بالصراحة والوضوح نموذجان يمثلان الجانب المصرى، ونقصد بذلك **نموذج جمال عبد الناصر**، ثم نموذج الرئيس السادات. كل منهما يختلف من حيث جوهره فى إدراكه للصراع، ومن ثم فى تعامله مع الصراع، وإن كان هذا لا يمنع من أن كلاً منهما خلال هذه الفترة، والتى تبدأ مع حرب الأيام الستة يقتربان ويتشابهان إلى حد كبير فى الجانب الآخر، أى الجانب الإسرائيلى، نجد **نموذج «مناحيم بيجن»**، ورغم أن «مناحيم بيجن» لم يحارب مصر فى خلال فترة قيادته للصراع، إلا أن نموذجه أكثر النماذج وضوحًا وصراحةً. النموذج الرابع يقدمه لنا « **هنرى كيسنجر**» بدوره نموذجًا واضحًا من حيث خصائصه، ولكنه يجب أن نتذكر أنه طرف ثالث، وليس طرفًا مباشرًا فى الصراع «هنرى كيسنجر» كان يمثل المصالح الأمريكية، وبغض النظر عن علاقاتها بإسرائيل، فهى متميزة ولا تمثل الطرف المباشر فى هذا الصراع.

obeikandl.com

المبحث الثانى

نماذج لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى

المحور الأول

نموذج الإدارة فى عهد عبد الناصر

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«مما لا شك فيه أن جمال عبد الناصر شخص عملاق وقائد متميز، على أننا قبل أن نتطرق إلى خصائص القيادة الناصرية للصراع العربى ـ الإسرائيلى، يجب أن نتذكر مجموعة من الحقائق:

الحقيقة الأولى ـ أن الفشل فى قيادة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، لا تعنى فشل القائد فى جميع أبعاد حركته السياسية. وقيادة صراع إقليمى من مستوى الصراع العربى ـ الإسرائيلى يفترض، وكما سوف نرى، من المقومات بما لا يعنى بالحتمية توفرها فى أى قائد يتصدى للتغيير فى المنطقة.

الحقيقة الثانية ـ أن فترة حكم عبد الناصر وقيادته للصراع، فترة غير قصيرة ولا يمكن أن تخضع لنفس القواعد. قيادة الصراع العربى ـ الإسرائيلى فى عام 1956 ليست هى نفسها فى عام 1967 لأكثر من سبب واحد، ويكفى أن نتذكر أن الموقف الدولى أثناء العدوان الثلاثى، لم يكن هو الموقف الدولى عندما نشبت حرب الأيام الستّة ـ فى النموذج الأول، فإن واشنطن وموسكو كانتا فى حالة شبه اتفاق على ضرورة إخراج كل من «بريطانيا وفرنسا» من المنطقة، بينما فى النموذج الثانى، فإن الخلاف كان بين «واشنطن وموسكو»، وأن الأولى كانت تريد أن تزحزح الثانية من السيادة على المنطقة، هدف إسرائيل أيضًا لم يكن واحداً فى الأول لا تريد سوى انتزاع الشرعية الإقليمية، أما فى

الثانى فهى تريد خلق اختلال فى التوازن الإقليمى. أضف إلى ذلك: أن ناصر كان هو ونظامه قد تغير بين عام 1956 وعام 1967 لا يعنى التغيير المتقدم، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن عناصر الموقف لم تكن واحدة، وقد سبق وذكرنا أن أحد العناصر الأساسية فى إدارة الصراع هى خصائص الموقف الذى يتم التعامل معه.

الحقيقة الثالثة ـ وهى أنه علينا أيضًا أن نعترف بأن مصر لم يُقدَّر لها سيادة المنطقة منذ ما لا يقل عن ثلاثة قرون، بل ومنذ معركة عين جالوت، فإن مصر قد انطوت على نفسها ولم تفهم حقيقة وظيفتها فى المنطقة، ورغم أننا فى بعض الأحيان نقارن بين «محمد على» والزعيم المصرى الراحل. إلا أن هذه المقارنة ترتبط فقط بالتعامل مع الوظيفة الدولية لمصر، التى يفرضها واقعها الاستراتيجى، ولنتذكر أن وظيفة مصر الدولية ليست هى وظيفتها الإقليمية، ورغم الترابط بين كل منهما، إلا أن كلاً منهما تملك استقلالها المتميز. وظيفة مصر الإقليمية تعنى تلك الوظيفة الحضارية التى تجعل من مصر مصدرًا لإشعاع معين فى منطقة الشرق الأوسط، يفرض عليها أن تقود المنطقة. الوظيفة الدولية تعنى أن موضع مصر يحتم عليها التعامل مع القوى العظمى، ومن ثم يفرض عليها أن تتبع ذلك السلوك الذى يحميها من محاولة السيطرة على مقدراتها، وهى لذلك لابد وأن تتحالف مع القوى الدولية الثانية التى تستطيع أن تحميها من القوة الدولية الأولى «محمد على» فهم ذلك فتعامل مع «فرنسا». «جمال عبد الناصر» بدوره كان واعيًا بتلك الحقيقة، فوجه تعامله إلى الاتحاد السوفيتى.

والذى يعنينا فى هذه العجالة السريعة، يدور حول قيادة ناصر عقب هزيمة 1967، وكيف أدار الصراع خلال الأعوام الثلاثة التى سبقت وفاته فى سبتمبر 1970، ورغم ذلك فإنه لابد من أن نتعرض لموضوعين، قد يقودنا أى منهما إلى ما يخرج بنا عن موضوعنا، ولكنه فى الواقع عنصر أساسى فى فهم ـ بدقة وعملية ـ حقيقة ودلالة هذه الخبرة التاريخية.

ـ يجب أن نحدد أولا خصائص القيادة التى يطرحها «جمال عبد الناصر».

ـ وعلينا كذلك أن نفهم خصائص إدارة الصراع أثناء أزمة عام 1967.

ـ وأخيرا يجب أن نتتبع تطور المفاهيم الناصرية عقب هزيمة عام 1967، حتى وفاته.

ـ وقبل ذلك يتعين علينا أن نحدد حقيقة أزمة يونيو وحرب الأيام الستة، إن هذا سوف يساعدنا على فهم حقيقة الأطراف المتعاملة مع الصراع والدور الذى يجب أن تلعبه الإدارة المصرية فى تعاملها مع الموقف.

نستطيع أن نحدد خصائص تلك القيادة فى خمسة عناصر أساسية:

أولا ـ فعبد الناصر قبل حرب 1967، كما أنه عقب تلك الحرب أثبت قدرة غريبة على اتخاذ القرار، والتمسك به، بل وعدم التراجع عن تنفيذه مهما كان خاطئًا.

ثانيا ـ أثبت قدرة غريبة على التعامل مع الجماهير العربية. كانت هناك علاقة غريبة خفية ربطت بين الزعيم المصرى والمجتمع العربى فى جميع أجزاء هذا الوطن. لا شك أن الإخلاص والإيمان والتواضع السلوكى، كانت جميعها عوامل ميزت شخصية «عبد الناصر»، وخلقت التجاوب اللاشعورى مع المجتمع العربى، ولعل خصائص الموقف فى الوطن العربى خلال الفترة الأولى من حكم «عبد الناصر»، مما يفسر جزءًا من هذه الشعبية الجارفة، ولكن لا شك أن شخصية عبد الناصر والدور الذى قام به «صوت العرب»، وطبيعة المرحلة التى كانت تمر بها الأمة العربية، أسهم كل منها بشكل أو بآخر فى بلورة هذه الشعبية التى لم يعرفها حاكم آخر منذ عدة قرون.

ثالثا ـ كذلك فإن «جمال عبد الناصر» أثبت قدرة واضحة على التلاعب بالقوى السياسية، سواء فى الداخل أم فى الخارج ـ لا يعنى ذلك أنه يمثل النموذج الدبلوماسى، فقد كان يأنف المهادنة المخادعة، ولكنه كان إذا أراد استطاع، أن يُطوع القوى السياسية بعبارة واضحة، وقد بدا ذلك بصورة خاصة عقب هزيمة 1967، وبصفة خاصة فى مؤتمر «الخرطوم» لقد ذهب إلى «السودان» وهو مهزوم، وخرج منها وجميع القيادات العربية تقف خلفه، بما فى ذلك السعودية!! كذلك أثناء حرب الاستنزاف، استطاع بدبلوماسية واضحة توريط «موسكو» فى حرب القناة.

جمال عبد الناصر وحرب 1967:

رغم أن الوثائق الحقيقية عن حرب يونيو لا تزال تحيط تلك المأساة بغموض لا حدود له، وقد لا تنكشف الحقيقة إلا عقب أعوام كثيرة، إلا أننا يجب فى تحليلنا لهذه المأساة ـ بقصد اكتشاف الدلالة ـ لابد وأن نتسلح من جانب بالصبر، ومن جانب آخر بالشجاعة، ومهما قيل عن أخطاء «جمال عبد الناصر»، فإن النظرة العميقة لابد وأن تكتشف أن الهزيمة المصرية الساحقة كانت نتيجة مجموعة من المتغيرات، بعضها ينبع من أسلوب إدارة الصراع، وبعضها ينبع من متغيرات أخرى لا صلة لها بعملية إدارة الصراع.

هزيمة مصر عام 1967 كانت قد تقررت من جانب جميع القوى الدولية عقب الوحدة بين مصر وسوريا، وكما أن هذه الوحدة كان من الممكن أن تُحجِّم إسرائيل وتمنعها من أى اعتداء على أى من الدول العربية المحيطة بها، فإنها كان لابد وأن تقلق خصوم المنطقة وتعيد إلى الذهن قصة «محمد على»، أى قوة دولية لم يكن من مصلحتها أن ترى العالم العربى يسير نحو الوحدة. الترابط الحقيقى بين شمال إسرائيل وجنوبها، يعنى أن المخطط

الأوربى ذاته بإنشاء إسرائيل قد فشل. وذلك دون الحديث عن الرعب الذى أحاط بالقيادة الإسرائيلية، وقد وجدت نفسها محاطة بكماشة هائلة تضمها من الشمال والجنوب، فضلاً عن الغرب. الأحداث اللاحقة للوحدة كانت تؤكد هذا الخوف، فالتطور الوحدوى فى الأردن ـ بل وفى العراق ـ كان ينبئ بحركة عارمة نحو هذا الهدف. وهكذا تبلورت هذه الخطة التى أكدتها عقب ذلك أحداث اليمن، والتى تدور حول خمسة عناصر أساسية:

العنصر الأول ـ أن تتلقى مصر ضربة قوية، وأن تكون الضربة الأولى.

العنصر الثانى ـ أن تكون هذه الضربة من القوة، بحيث تخلق الشَّلَلَ الكامل فى الجسد المصرى.

العنصر الثالث ـ أن تكون الضربة ساحقة وسريعة، بحيث يختفى اسم «عبد الناصر» من المنطقة، بل وإلى الأبد، وأن يحل محل الحب والكبرياء لتجربته ولشخصيته فقط الكراهية.

العنصر الرابع ـ أن تكون الضربة فقط من الجانب الإسرائيلى، بحيث تبدو ضخامة هذه الضربة، وقد وجهتها دولة صغيرة لا قيمة لها فى نطاق التعامل الدولى.

العنصر الخامس ـ أن تكون خسائر إسرائيل فى أقل مستوى ممكن، وبصفة خاصة من الناحية البشرية.

لقد كانت حرب يونيو مؤامرة دولية، أُعِدّ لها منذ نهاية الستينات وسقط فيها القائد العملاق، وقد أحاطت به الذئاب من كل جانب، ومن بينها من خرج من الأرض العربية. إن الخطأ الحقيقى الذى وقع فيه «جمال عبد الناصر» فى إدارته للصراع هو أنه استهان بخصومه ولم يُعدّ نفسه لمواجهة هذه المعركة بكل إمكانياته. وقد كان الواجب عليه أن يعمل لهذا الهدف جاداً ـ وبصفة خاصة منذ الوحدة مع سوريا ـ وليس فقط منذ الانفصال.

الانفصال : هو الضربة الأولى فى هزيمة يونيو، ويتجلى هذا بصفة خاصة فى النواحى التالية:

أولا ـ أنه لم يغير الطاقم الذى كان يحيط به أثناء الوحدة مع سوريا. الفارس كان عليه أن يعلم أن الحصان الذى يمتطيه قد تجاوزته الأحداث، ولكل موقف رجاله. لم يكن حول عبد الناصر أثناء حرب يونيو سوى المجموعة التى لا تصلح لمواجهة أى موقف بطولى[1].

ثانيا ـ أنه كان عليه أن يُعد الإطار الدولى، منذ ذلك التاريخ لحركته ولصدامه مع

---

(1) لأنها مجموعة ـ كما وصفها الدكتور حامد ربيع ـ «قد ترهلت» وانشغلت بحياتها الدنيا: «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية» مصر والحرب القادمة ـ أ. د. حامد عبدالله ربيع ـ طبعة دار الوفاء، 1998.

إسرائيل، الحرب كانت قادمة لا محالة، فالقيادات فى «تل أبيب» ما كانت تستطيع أن تسمح لتجربة الوحدة بأن تتكرر، لتجد نفسها فى موقف المحاصر من جميع النواحى، ومن ثم كان على الرئيس المصرى أن يعد لذلك الإطار الدولى ما يأتى:

أ ـ إعادة العلاقات مع الولايات المتحدة.

ب ـ تدعيم قنوات الاتصال مع القيادات الأوربية.

جـ ـ تقوية الروابط مع الاتحاد السوفيتى، إلى أقصى فاعلية، ولو من خلال التوريط فى عملية إدارة الصراع.

د ـ القيام بدعاية دولية واسعة النطاق ضد إسرائيل.

هـ ـ محاولة التسلل داخل إسرائيل بالتعامل مع قوى التفكك فى المجتمع الصهيونى.

ثالثا ـ كذلك فقد كان عليه أن يعيد تشكيل أولويات الأهداف القومية، لقد كانت سياسة «جمال عبد الناصر» تسير فى طرق ثلاث:

ـ التجديد الاشتراكى. ـ الوحدة العربية. ـ والصدام مع إسرائيل.

كان واجبه أن يترك الهدفين ـ الأول والثانى ـ ولو مؤقتًا، ويكتل جميع قواه فى العنصر الثالث. ويعنى ذلك كثيرًا من النتائج: تصفية حرب اليمن، تجنب معارك مع الحكام العرب ـ إرجاء ولو مؤقتًا كل ما له صلة بالعدالة الاشتراكية.

رابعا ـ كذلك فى إدارته للصراع، كان يجب عليه أن يتعامل مع الموقف بطريق التدرج. الذى حدث أنه انساق إلى مواقف صلبة جامدة لا يستطيع الخروج منها. اتخذ مواقف قاطعة لا رجعة فيها، وقد ظهر بذلك فى العديد من القرارات، نذكر بصفة خاصة موقفه من إسرائيل عندما أعلنت أنها تعتبر إقفال مضيق «تيران» بمثابة إعلان للحرب، كذلك عندما طالب الأمم المتحدة بسحب قواتها من الأراضى المصرية. ولعل هذه المواقف المتشددة كان مردها أنه لم يفهم بوضوح كيف أن القوى الدولية ـ وليست فقط إسرائيل ـ كانت تدفعه إلى موقف الصدام العضوى ـ بأسلوب معين ـ والذى تجلى فى أمور عديدة تستطيع العين الفاحصة اليوم على مَبْعَده عشرين عامًا أن تلمسها:

أ ـ سبق أن ذكرنا إعلان الجنرال «ديجول» الذى كان فى صالح إسرائيل، أكثر منه فى صالح الجانب العربى من حيث الواقع.

ب ـ تظاهر الولايات المتحدة بأن كل ما يعنيها هو فتح خليج العقبة أمام الملاحة الدولية، وأن هذا هو كل ما يعنيها من الموضوع، ورغم أنها أعدت خطة الحرب بالاشتراك مع القيادة الإسرائيلية، بل وصل الأمر فى عملية التمويه بأنها كانت توهم بأنها تقف خلف

إسرائيل لتمنعها من شن الحرب.

خامسا ـ أن «جمال عبد الناصر» وهو يدير صراعًا متعدد الدوائر، كان يجب أن يعلم وأن يدخل فى اعتباره حقيقة السياسة الأمريكية ـ وبصفة خاصة عقب مجىء «جونسون». لم يكن هذا الأخير فى خصائصه الشخصية ولا فى إدارته السياسية تكرارًا لـ «كنيدى». أولويات السياسة الأمريكية فى تلك الفترة كانت بالترتيب التالى:

ـ فيتنام. ـ العلاقات السوفيتية.

ـ الصين. ـ وأخيرًا الشرق الأوسط.

وكان عليه ـ ليس فقط أن يفهم هذا الترتيب ـ بل أن يدرك أنه والولايات المتحدة فى حالة هزيمة أو فشل فى فيتنام، لن تسمح لنفسها بفشل آخر فى الشرق الأوسط، أو بعبارة أخرى: أن حدود حرية الحركة فى هذه المنطقة محدودة، ليس فقط لخطورة المنطقة وما تعنيه من احتمالات المواجهة مع الاتحاد السوفيتى، بل ولأن الولايات المتحدة ما كانت تسمح لنفسها بهزيمة جديدة فى تلك المنطقة، أى ميدان آخر للتورط فى قتال يماثل ما هو قائم فى فيتنام.

وقد كان يعنى ذلك ضرورة بناء خطة واضحة مُقننة متعددة المراحل، للتعامل مع أزمة الشرق الأوسط، وهو أمر لم يحدث عقب حرب 1967. نضج «جمال عبد الناصر»، واكتملت نظرته الحقيقية للصراع العربى ـ الإسرائيلى، لقد فهم عقب قرابة خمسة عشر عامًا حقيقة هذا الصراع، واتضحت فى ذهنه الرؤية ـ لتعكس فهمًا واعيًا. مفهوم «عبدالناصر» تحدد منذ ذلك التاريخ فى عناصر خمسة:

أولا ـ هو صراع كلى شامل، إنه ليس مجرد نزاع حدودى، أو مشكلة الاستيلاء على قطعة من الأرض، إنه صراع مصيرى يجب أن ينبثق باستئصال إسرائيل من المنطقة، وهو بهذا المعنى صراع متعدد الدوائر، ولكن قلبه الحقيقى هو المشكلة الفلسطينية، بما يعنيه ذلك من انتزاع الأرض العربية، وإضفاء شرعية يهودية على تلك الأرض.

ثانيا ـ رغم ذلك، فإن هذا الصراع ينطلق فقط من القدرة المصرية، وأساسًا من الفاعلية المصرية. الحديث عن التضامن العربى هو لغة سياسية وليست لغة قتال.

حرب الاستنزاف التى كانت بداية الهزيمة الحقيقية لإسرائيل، لم يشترك فيها جندى واحد غير مصرى.

ثالثا ـ العنصر الثالث وهو الإيمان بأن الحرب مع إسرائيل لا يمكن إلا أن تكون حربًا طويلة الأمد. هذا العنصر الذى كانت قد طرحته قبل ذلك القيادة السوفيتية، والذى لم تكن قد آمنت به العقلية العسكرية المصرية السائدة حتى حرب 1967 اختفى كلية من إدراك

«عبد الناصر»، وفهم بصراحة ووضوح، كيف أن القضاء على إسرائيل لن يكون إلا من خلال حروب متتابعة ومعارك متتالية.

رابعا ـ كذلك نجد «جمال عبد الناصر»، ولأول مرة قد بدأ يؤمن حقيقةً بأهمية التعامل مع الإطار الدولى، والدور الذى تستطيع مصر أن تلعبه بذلك الخصوص، سواء لعزل إسرائيل أو التأثير فى قوى الرأى العام الدولى، أو جذب القوى الدولية للتعاطف مع مصر، وفى هذه الناحية نلحظ بوضوح مدى التحول الذى طرأ على عقلية «جمال عبد الناصر» عقب حرب الأيام الستة.

خامسا ـ ضرورة التعامل مع إسرائيل من الداخل، قبل حرب يونيو، لم يكن أحد يعرف شيئًا عما يحدث فى إسرائيل، بل إن أساتذة أجلاء حُبِسُوا أو هُدِّدُوا لمجرد أنهم ذكروا بعض الحقائق عن إسرائيل فى محاضراتهم الجامعية. عقب ذلك انفتح الذهن القيادى المصرى على الرغبة فى المعرفة وجمع المعلومات عن حقيقة إسرائيل، وقد برز هذا فى أكثر من مجال واحد، ورغم أنه بدأ أكثر من مجال واحد، ورغم أنه بدأ بداية متواضعة ولا يزال كذلك حتى اليوم. وهذه الخصائص للإدراك الناصرى برزت واضحة فى حرب الاستنزاف، ثم فيما تلاها من أحداث. ولنتذكر مبادرة «روجرز» وقصة الخلاف الأردنى الفلسطينى[1] الذى أنهى حياة الزعيم المصرى. ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنه لو قدرت له الحياة لكانت قد تغيرت إدارته للصراع العربى ـ الإسرائيلى، بل ويمكن القول دون مبالغة: إن معركة أكتوبر هى معركة ناصرية[2]، بقدر كونها معركة ساداتية، تُرى هل لهذا وُضعت خطة لإنهاء حياة الزعيم، قبل أن يصير إعصاراً يُخلص المنطقة من الكابوس الصهيونى؟

أسئلة تتدافع ولكن المؤرخ يقف أمامها عاجزا!».

---

(1) هذا الخلاف راح ضحيته حوالى 25000 قتيل فلسطينى فى مذابح أيلول الأسود!!

(2) قالها الرئيس السادات فى إحدى خطبه فى انتصارات أكتوبر أو العاشر من رمضان قال: «بأن خطة العاشر من رمضان أنا أخرجتها من درج عبد الناصر».

obeikandl.com

المحور الثانى

نموذج الإدارة فى عهد الرئيس السادات

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«متابعة نموذج إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى قبل هزيمة يونيه 1967 يلاحظ بوضوح، أن القيادة المصرية حركيًا وفكريًا، لم تستطع أن تفهم طبيعة هذا الصراع، ولم تعرف كيف تخطط للتعامل معه. وهى لا تزال كذلك إلى حد معين حتى هذه اللحظة. ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن هذه القيادة فى أعقاب حرب الأيام الستة بدأت تقترب من المفهوم، وتدرك أن التعامل مع هذه الظاهرة ليس بتلك البساطة. يجب أن نعترف أن التعامل مع المشاكل الدولية سيطرت عليه الهواية، وليس الاحتراف ـ وهو لا يزال يخضع فى قسط كبير لذلك الواقع. إن أول درس تعلمته القيادة أن إدارة الصراع ليس هو عملية صنع القرار، كذلك فإن الصراع يتكون من أزمات متعددة ومتتابعة. يجب أن يكون واضحًا فى التفرقة بين القرار، والأزمة، وإدارة الصراع. وإذا كانت هذه الكليات الثلاث تتداخل، فإن كلاً منها يملك استقلاله التام.

ولعل هذا يرتبط بسؤال هام: ما هى العناصر اللازم توافرها فى السياسة الخارجية حتى يُقدر لها النجاح؟

السياسة الخارجية لتنجح، لابد أن تتوفر فى إدارتها خمسة شروط أساسية:

الأول ـ وضوح الأهداف وترتيبها.

الثانى ـ الإعداد الجيد للإدارة الدبلوماسية.

الثالث ـ أن تستعين الأداة الدبلوماسية بالأدوات التكنولوجية المتقدمة، سواء فى جمع المعلومات، أو فى إدارة المرفق الدبلوماسى فى موقع نشاطه.

الرابع ـ أن تنطلق السياسة الخارجية من مبدأ التخطيط المتدرج.

الخامس ـ أن تتقن وزارة الخارجية فن توزيع الأدوار من جانب، والإخراج المسرحى من جانب آخر.

هذه الشروط هى الحد الأدنى لتنظيم مرفق العمل الدبلوماسى.

فالأهداف يجب أن تكون واضحة، وهذه هى السياسة القومية، ووظيفة القائد القومى.

والموضوع يعنى تحديداً من جانب، وترتيبًا تصاعديًا من جانب آخر، وإبرازًا بدقة

للبدائل لكل هدف من تلك الأهداف، والإعداد يعنى ليس فقط دراسة مسبقة، بل واختيار مَرّده القدرات الذاتية، ثم تدريب متتابع.

الدبلوماسى اليوم ليس رجل الصالونات، بل هو مقاتل وحيد فى بلد الأغراب، كما يقول الفقه الصهيونى. الأداة الدبلوماسية يجب أن تستعين بجميع ما قدمه العلم والتكنولوجيا من منجزات ـ وبصفة خاصة جمع وتخزين المعلومات مع القدرة الفائقة على تحليلها ـ والتنبؤ من خلالها بالحركة المعادية.

من المعروف أن وزارة الخارجية الأمريكية، تنبأت بالحرب العالمية الثانية قبل وقوعها بأسبوعين، بينما جميع القوى الدولية الأخرى ـ بما فى ذلك الدول المجاورة لألمانيا ـ فوجئت بالقتال، ومرد ذلك فقط هو استخدام هذه الوسائل العلمية، حدث ذلك منذ قرابة خمسين عامًا، فلنتصور ما يمكن أن يقدم التقدم التكنولوجى اليوم للسياسة الخارجية؛ كذلك فإن السياسة الخارجية لم تعد تعرف العشوائية، ولا السلوك غير المخطط. التخطيط فى السياسة الخارجية وصل إلى درجة من التقدم والتخصيص، حتى أن الكلمة التى تصدر من المسئول يجب أن يُعد لها، ليس فقط من حيث صياغتها، بل ولحظة صدورها. إن تصريحًا يصدر يوم الأحد، ليس مثل ذلك الذى يصدر صباح الإثنين ووظيفته تختلف؛ لأن الأحد عطلة تعوَّد الإعلام أن يجعلها فترة استرخاء؛ ولذلك مثل هذا التصريح يصير بمثابة بالون اختبار؛ ولذلك فإن وزارة الخارجية هى مجموعة مراكز بحوث، وليست إدارات معتادة. وأخيرًا وليس آخرًا، فالسياسة الخارجية اليوم تقوم على مبدأ توزيع الأدوار، وقد ارتبط ذلك بعملية الإخراج المسرحى، وبصفة خاصة تبرز هذه الصفة فى السياسة الخارجية للدول الكبرى التى تسعى لاختراق إطار المجتمع الدولى لصالحها. كل سياسة تريد أن تصير فاعلة فى خارج حدودها، ويجب أن تتعلم ذلك إخراجًا مسرحيًا من جانب، وتوزيع أدوار من جانب آخر. جميع هذه الخصائص لم تعرفها السياسة العربية، إلا مع الرئيس السادات لسنا فى مجال الدفاع أو الهجوم على السياسة الساداتية، نحن فى محاولة لفهم حقيقة تلك السياسة، من حيث إدارتها للصراع لاكتشاف عناصر الضعف، ولكن أيضًا لنلتمس نواحى القوة؛ لنستطيع أن ننتفع بالخبرة ودلالة تلك الخبرة. وسوف تكتمل تلك الدلالة.

نموذج السادات فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى :

أولا ـ فالمعلومات غير كافية، وسوف تظل كذلك إلى فترة غير قصيرة، ولا يجوز أن يخدعنا بهذا الخصوص كثرة ما كُتب ونُشر عن حرب رمضان، ويكفى أن نتصور أن نقص

هذه المعلومات وصل إلى حد التساؤل عن حقيقة الدور الذى لعبه «كيسنجر»، هل هو لصالح إسرائيل أم فقط لصالح الولايات المتحدة، حتى أن البعض يصل به الأمر إلى القول بأن الولايات المتحدة انتقلت فى أثناء الحرب من صديق لإسرائيل إلى صديق للعرب.

ثانيا ـ الناحية الثانية التى تخلق هذه الصعوبة، هو تطور «السادات» خلال الصراع. فهو نجح نجاحًا حقيقيًا خلال الفترة الممتدة حتى حرب أكتوبر، ولكنه فشل فشلاً كاملاً خلال الفترة التى تبدأ من زيارة القدس حتى مقتله. أليس هو نفس الشخص فى الصراع فى كلا المرحلتين؟ بل إن موقفه فى المرحلة الناجحة، أين «كيسنجر» ببراعته فى المرحلة الأولى من «كارتر» فى المرحلة الأخيرة، وأين إسرائيل الناجحة فى نهاية حرب أكتوبر من إسرائيل المترددة المضطربة فى المرحلة الأخيرة؟ فكيف نفسر هذا التناقض؟

ثالثا ـ كذلك الناحية الثالثة، وهى المقارنة الطبيعية واللاشعورية بين المرحلتين. «جمال عبد الناصر» رغم الهزيمة الساحقة ظل حتى نهاية حياته شامخًا عالى الرأس، أما السادات منذ نهاية الحرب بدأ عمليات المناورة التى لم يفهمها رجل الشارع إلا على أنها تنازلات كانت تعنى حقيقتها ضربات ساحقة للكبرياء المصرى والعربى.

رغم ذلك فعلينا أن نغوص فى أعماق هذا النموذج، نكتشف خباياه، وليس لنا من ذلك سوى هدف واحد: أن نفهم دلالته ونحن نخطط لمرحلة جديدة من التعامل مع مشكلة الشرق الأوسط.

مما لا شك فيه أن التعرض لنموذج السادات فى إدارة الصراع، يفرض العديد من الملاحظات، بل ومن الصعوبات التى يستحيل تخطِّيها فى الوقت الحاضر، ليس فقط بسبب نقص المعلومات الحقيقية، ولكن أيضًا بسبب التطور الخطير الذى أصاب إدارة «السادات» فى صراعه من النجاح الحقيقى إلى الفشل الحقيقى. هذا من جانب، ومن جانب آخر بسبب المقارنة اللاشعورية بين نموذج «جمال عبد الناصر» ونموذج «السادات»: فلنبدأ بأن نحدد هذه المتغيرات:

أ ـ الرئيس «السادات» هو استمرار لشخصية «عبد الناصر». المدركات التى انطلق منها الرئيس السادات ـ خلال الفترة الممتدة حتى حرب أكتوبر ـ هى استمرارية لمفاهيم «عبد الناصر». وذلك رغم أنه هناك خلاف جوهرى فى شخصية «السادات» لو قورنت بشخصية «عبد الناصر». وقد برز هذا الخلاف واضحًا عقب حرب أكتوبر ـ وبصفة خاصة قبل وبعد زيارة الرئيس «السادات» لمدينة القدس. فالرئيس «عبد الناصر» ـ كما سوف نرى فيما بعد ـ هو زعيم مؤمن باختياره الإلهى. أما «السادات» فهو حاكم جاءت إليه السلطة عن طريق المصادفة ويريد أن يتمسك بتلك السلطة لأكبر فترة ممكنة. الأول يعنيه أساسًا حركة المجتمع الذى يقوده ويسير على رأسه. الثانى لا يعنيه إلا نفسه ولا يفكر فى

غيره بأى معنى من المعانى، كبرياؤه الذاتى هو الذى يسيطر على سلوكياته «عبد الناصر» لا يسيطر عليه سوى كبرياؤه القومى.

ب ـ الرئيس «السادات» كذلك قد تطور خلال رئاسته للدولة فى مدركاته وفى إدارته للصراع العربى ـ الإسرائيلى. فهو عقب زيارته للقدس ليس هو قبل حرب أكتوبر. شخصية الرئيس «السادات» خضعت لتطورات عنيفة يجب أن تكون واضحة فى الذهن، ونحن نحاول فهم فلسفته وأسلوبه فى إدارة الصراع، ساعد على ذلك طبيعته الشخصية، فهى ليست متماسكة، وهى من السهل تطويعها، وهى تتميز بالالتواء وعدم الوضوح.

الفارق الأساسى بين «السادات» والرئيس «جمال عبد الناصر» ينبع من نقطتين أساسيتين:

الأولى شخصية كل منهما، «جمال عبد الناصر» كان زعيمًا وذئبًا، أما «السادات» فهو رجل دولة وثعلب. من هنا تنبع جميع الفوارق.

«عبدالناصر» كان يعتقد بأنه مختار من العناية الإلهية، ليقود العالم العربى وهو مندفع، تشده أصوات الجماهير إذا أقبل على خصمه، فبصدره يتلقى اللطمات، ولا تعنيه الكدمات. يتقدم للمعركة، والدماء تسيل من جميع أجزاء جسده دون تردد ودون خوف، لا تبرز خصائصه حقيقة إلا فى المواقف الصعبة.

أما السادات فقد كان على خلاف ذلك، فهو يتظاهر بالموت حتى يتمكن من عدوه ويقتله دون أى مخاطر، محترف فى خلق القلاقل، يهاب المواقف المعقدة، ويهرب منها إلى الطريق السهل، وهو يعشق الحياة التى ظلت ممتنعة عليه طيلة حياته السابقة على الرئاسة، ويعيش فقط من أجلها. هذا الخلاف لم يتضح فى بداية حكم الرئيس «السادات». حياته بالقرب من الرئيس «عبد الناصر» خلال أعوام ثلاثة سابقة على موت الزعيم المصرى مع شخصية ضعيفة تسودها عقدة الإسفاف، جعلت شخصيته صورة ممسوخة للرئيس «عبد الناصر».

وهكذا فى بداية حكمه تقمص بلا وعى تلك الشخصية، وسار على دربها، ولكنه تدريجيًا مع ممارسة الحكم بدأ يبتعد عن خصائص سلفه، ليتصف بخصائص جديدة فى إدراكه للصراع العربى ـ الإسرائيلى. ضعف شخصيته سمح لعناصر أخرى داخلية وخارجية محيطة به أن تعيد تشكيل إدراكه وتوجهه فى الطريق الذى يريد. وبصفة خاصة عقب الثغرة أصابته صدمة عنيفة، فرضت على شخصيته التهلهل. وظلت هذه العملية ـ التهلهل ـ فى شخصيته والتسلل للإمساك بتلابيب تلك الشخصية منذ حرب أكتوبر فى ارتفاع مستمر، حتى وصلت إلى قمتها مع زيارته للقدس.

قبل أن نُفصّل ذلك ونتائجه ـ فى إدارته للصراع العربى ـ الإسرائيلى ـ فلنتذكر

الخصائص العامة لإدراكه لحقيقة الصراع، والتى بدت واضحة عقب اتفاقية فك الاشتباك الثانى، والتى لم تكن سوى أفكار زرعت فى رأسه نتيجة عملية غسيل المخ، واسعة النطاق، بدأت مع زيارة «كيسنجر» لمصر أثناء حرب رمضان:

أولا ـ فهو يؤمن بأن الصراع العربى ـ الإسرائيلى هو صراع طويل الأجل. إنه صراع أجيال، هذا المفهوم قد سبق وآمن به «جمال عبد الناصر»، ولكن السادات أضاف أن هذا الصراع لن ينتهى بمعركة أو عدة معارك، وهو لن يغير فى مدخلاته مرحلة تهدئة واسترخاء تسمح باسترداد النفس. إن جيلنا قد دفع الكثير وآن له أن يستريح قليلاً ليترك مهمة هذا الصراع للأجيال القادمة.

ثانيا ـ ولكن هذا لا يمنع من ضرورة تحريك القضية، وعدم ترك هذه القضية تتجمد. على العكس إن فترة الاسترخاء تفرض علينا أن ندفع القضية لأن تبرز على السطح بجميع الوسائل الممكنة والمتاحة. وهذا بدوره ـ أى ضرورة تحريك القضية ـ مفهوم ناصرى. ولكن ناصر كان يرى التحريك أسلوبه الوحيد ـ القتال ـ حتى ولو كان لمجرد أن يجعل الخصم لا يستطيع الجلوس على مقعد النصر.

السادات اعتقد أن عدم تجميد القضية لا يعنى فقط القتال. هناك أدوات أخرى لا تقل فاعلية، ومنها الأداة الدبلوماسية.

ثالثا ـ العنصر الثالث وهو أن القضية هى بالأساس قضية مصرية إسرائيلية. وهنا تبدو عملية الانزلاق فى الفكر الناصرى. فـ «جمال عبد الناصر» لم يكن يرى فى الصراع فقط صداماً بين مصر وإسرائيل، ولكنه عقب حرب يونيه آمن بأن عليه أن يعتمد فقط على القدرة المصرية. الرئيس «السادات» طوّر هذا المفهوم الناصرى ليصل إلى القول بأن القوى العربية ليست صالحة، ولا قادرة، بل وليست راغبة فى عملية المواجهة. ولعل أحد عناصر خلق هذه القناعة، عندما تخلت ليبيا عن تقديم البترول إلى القوات البحرية المصرية لغلق باب المندب، ولم تتردد طهران فى أن تقدم تلك المساعدة.

رابعا ـ العنصر الرابع فى إدراك السادات، أن العدو الحقيقى لمصر وللعالم العربى هو الصهيونية الأمريكية. ليست إسرائيل سوى أداة تنفذ إرادة عدو أكثر قوة وأكثر فاعلية. وقد آن الأوان لمواجهة هذا العدو الحقيقى، الذى يستتر خلف إسرائيل. وهنا يبدو الفارق الحقيقى بين الإدراك الناصرى والساداتى. لقد كان «جمال عبد الناصر» لا يرى سوى إسرائيل، ولا يعنيه كل ما يتصل بالصهيونية البعيدة عن حدوده الشرقية بآلاف الأميال. كلا الفلسفتين موضع نظر. فإسرائيل هى العدو المباشر ولكن الصهيونية من خلفها تمدها بالطاقة، وتسمح لها بالفاعلية، للتعامل مع إسرائيل لا يجب أن ينسينا الصهيونية. كذلك

فإن منازلة الصهيونية هى أيضًا من خلال قطع رأس الأفعى التى تسربت واستقرت فى داخل منزلنا.

خامسا ـ وقد كانت هذه القناعة مصدرًا ومبررًا لقناعة أخرى لدى «السادات» وهى ضرورة سحب الوظيفة الإقليمية من القيادة الإسرائيلية. هذه الوظيفة هى التى تخلق علاقة التجاذب بين «تل أبيب وواشنطن» على مصر أن تستغل خصائصها الديموجرافية والحضارية وموقعها الاستراتيجى فى أن تؤدى نفس الوظيفة التى تؤديها «تل أبيب» لصالح واشنطن، ومن ثم يتم تحييد الدبلوماسية الأمريكية. وهنا وقع الرئيس «السادات» فى أكثر من خطأ واحد:

أ ـ فإسرائيل تؤدى وظيفة الدولة الحارس، أى أداة للتحكم فى دول المنطقة، أما وظيفة مصر الحقيقية، فهى الدولة القائد، أى تكتيل دول المنطقة ضد أى تدخل أجنبى.

ب ـ أن إسرائيل تستند إلى أقلية مزدهرة فى المجتمع الأمريكى، بحيث تعتبر استمرارًا لتلك الأقلية فى خارج الولايات المتحدة، وهو أمر لا تستطيع أن تزعمه مصر.

جـ ـ أن سياسة «واشنطن» أساسها الجمع بين الأداتين، أى بين إسرائيل ومصر ـ بل وبإضافة السعودية، وليس «استبعاد» أداة لحساب أداة أخرى.

سادسا ـ ويرتبط بذلك ويقود إليه مفهوم التعامل مع إسرائيل من الداخل. إسرائيل كيان يعانى من الكثير من عناصر التحلل، ويجب أن يتم استغلال ذلك لإضعاف ذلك الجسد، بحيث يكون كيانًا لا يستطيع أن يقاوم ضربة قوية تأتى من الخارج، أول من صاغ هذا المفهوم بطريقة واقعية، كان «هتلر»، الذى ابتدع فكرة الطابور الخامس. ولكن التأصيل العلمى كان من حظ «كيسنجر»، وقد استخدمه سواء فى تعامله مع الاتحاد «السوفيتى»، أو «الصين»، والواقع أن هذا الإدراك انطلق من المفهوم الناصرى، عقب حرب 1967، والذى كان أساسه الرغبة فى العلم الكامل بحقيقة وخصائص الكيان الصهيونى، ولكن «جمال عبد الناصر» كان يعتمد أساسًا على جهاز المخابرات ـ وهو غير كاف ـ بل وقد يشوه الحقيقة مهما دقت أدوات جهاز المخابرات؛ لأن معلوماته دائمًا شخصية يسودها عنصر العاطفة، وعلى كلٍ هى غير كافية. الرئيس «السادات» طَعَّم مفهوم «عبد الناصر» بمفاهيم «كيسنجر» التى أساسها إضعاف الجسد من الداخل، قبل أى منازلة دولية، ولكن هذا بدوره يفترض بناء الجهاز القادر والصالح لهذه العملية، وهو أمر لم يتم حتى هذه اللحظة، بحيث إن إسرائيل استطاعت أن تتغلغل فى الجسد المصرى، لتنتزع منه عناصر القوة، بينما مصر لم تستطع حتى أن تصل إلى معلومات دقيقة عن حقيقة الجسد الإسرائيلى.

سابعا ـ ويكمل ذلك عنصر سابع وأخير، وأساسه أن العالم المتقدم الأوربى الغربى،

وكذلك العالم الأمريكى، به قوى مؤيدة ومتعاطفة مع القضية العربية، ولكن هذا الجانب ـ أى الجانب العربى ـ لم يعرف كيف يتعامل معها، تارة بسبب عدم الصلاحية، وتارة بسبب عُقَدَ النقص المتراكمة، وقد آن لهذا العالم ـ وبصفة خاصة مصر ـ أن تطرح جانبًا ذلك التراث من النقص وعدم القدرة، لتستغل جميع إمكانياتها. وهذا صحيح، فهناك قوى عديدة تقف من القضية العربية موقف العطف ـ إن لم يكن موقف الاتحاد فى المصالح. فلنتذكر على سبيل المثال الشركات البترولية من جانب، والقوى المرتبطة بزراعة وتصدير القطن من جانب ثان، بل الدوائر المسؤولة فى البحرية الأمريكية، وفى نفس وزارة الخارجية فى واشنطن. ولكن الذى حدث أن هذه القوى من جانب أضعف من أن تواجه الصهيونية الأمريكية، ومن جانب آخر لم تجد المساندة والمؤازرة العربية الحقيقية لتتصدى لخصوم هذا التوجه نحو القضية العربية، ولو بالنظرة المحايدة. ولكن هل تغيرت أساليب التعامل العربى؟ لا يزال العالم العربى ـ بما فيه مصر ـ غير واع بكيفية ذلك التعامل وأساليبه، وهو لا يزال يتصور أن ابتسامة فى حفل عشاء تعنى أن القضية العربية قد كسبت أنصارًا».

obeikandl.com

المحور الثالث

تقويم النموذجين جمال عبد الناصر وأنور السادات في إدارة الصراع العربي ـ الإسرائيلي

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«مرة أخرى نُذكر القارئ أننا لا نريد سوى أن نستخلص الدلالات الحقيقية بحذر وموضوعية، الأمر الذى لا شك فيه أن كلاً من «جمال عبد الناصر وأنور السادات» قد فشلا. الأول اختفى وخُمْس بلاده محتلٌ، وهيبة مصر قد مُرِّغت فى الأوحال، والثانى «أنور السادات» غادر الساحة مقتول من أبنائه، مرفوض من شعبه. وهو فى حقيقة الأمر لم يعرف كيف يستغل انتصاراً حقيقياً قدمه له جيشه. قد يبدو لأول وهلة أن فشل «عبد الناصر» كان أكثر خطورة، ولكن الواقع أننا يجب أن نعترف بحقيقتين يبرزهما التحليل المحايد:

الأولى ـ أن هناك استمرارية خفية بين «جمال عبد الناصر والسادات»، ورغم الاختلاف الواضح فى شخصية كلاً منهما، مرده الحقيقى عدم فهم أيًا منهما لحقيقة الإطار الدولى والإقليمى للتعامل. لقد سبق ورأينا كيف أن ضعف شخصية «السادات» وقوة شخصية «عبد الناصر» مكنت هذا الأخير من أن يظل حاضراً فى الساحة ـ أيضاً عقب موته ـ وظلت هامته مسيطرة على الموقف حتى حرب أكتوبر. المنتصر الحقيقى فى حرب أكتوبر كان أيضاً «جمال عبد الناصر»، بل إن «عبد الناصر» وهو ميت أكثر خطورة منه فى أثناء حياته.

الثانية ـ أن فشل «السادات» فى إدارة الصراع يبرز واضحاً فى أثناء حرب أكتوبر، فهو فَشِلَ عسكرياً فى هذه الحرب؛ لأنه لم يفهم التفرقة الضرورية والحاسمة بين الإجابة على السؤال: **متى يجب أن نحارب**؟ والسؤال الآخر: **كيف يجب أن نحارب**؟ وإذا كان الأول «عبد الناصر» يُدخل كل اختصاصه كرئيس للدولة، فقد كان عليه أن يفهم أن الإجابة على السؤال الثانى والتعامل معها هى فقط من اختصاص القيادة العسكرية. ولعل أخطر ما يعنينا بهذا الخصوص أن المخطط لحرب أكتوبر لم يُعِدّ عُدّتَه لا لاستغلال النصر، ولا لاستيعاب الهزيمة. وهذه مسؤولية القيادة السياسية والقيادة العسكرية. كذلك هو فَشِلَ سياسياً عقب حرب أكتوبر عندما لم يعرف كيف التعامل الدبلوماسى مع الأطراف المتشابكة فى إدارة الصراع. فهو برز متهالكًا على أمريكا من جانب، ومعلناً حدود قوته

فى علاقته بإسرائيل من جانب آخر. الفشل العسكرى أعقبه فشل سياسى، هذا لا يمنع من أنه حقق نجاحًا عسكريًا وسياسيًا فى آن واحد. علينا أن نبرزه لنفهم دلالته ومعناه.

فلنتابع هذه النقاط بشىء من التفصيل:

«جمال عبد الناصر» فشل حتى عام 1967 فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى بسبب أساسى، وهو استهانته بخصومه. أول عناصر القيادة هى: أن القائد يجب ألا يستهين بمن ينازله، وألا يستهين بالمواقف التى يخلقها عدوه. «جمال عبد الناصر» حتى حرب الأيام الستة اعتقد بقدراته، ولم يحترم لا قدرات خصومه؛ ولا ضرورة الحاجة إلى الخبراء المخلصين. شخصيته لم تؤمن بذلك. ولكن ما هو أخطر هو أنه لم يكن على استعداد لأن يتقبل النصيحة. أحاط نفسه بمجموعة من الغلمان يعبدون شخصه ويسبحون بحمده. وليته كان عن قناعة، بل كان فقط ينبع من متغير المصلحة الشخصية. لم ير بالعين الثاقبة ـ التى كان يملكها ـ كيف أن خيوط الموقف فى المنطقة كانت قد بدأت تفلت من يده. هزيمة «عبد الناصر» الحقيقية كانت فى سبتمبر عام 1961 عندما حدث الانفصال مع سوريا؛ لأنه منذ ذلك التاريخ بدا العد العكسى لغير صالحه من جانب، والتصلب الغربى لاستئصاله من المنطقة، وليس فقط الإسرائيلى دون وعى حقيقى من جانب القيادة المصرية بذلك. بل ويمكن القول بشىء من الحياد: وجدت أيضًا قيادات عربية توافقت فى أهدافها مع القيادات الغربية والإسرائيلية بذلك الخصوص، ولنفصل ذلك:

الانفصال بين مصر وسوريا كان يعنى ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى ـ فض الحصار الذى أحاط إسرائيل من الشمال والجنوب، وهو أمر فى غاية الخطورة والأهمية فى أى صِدَام مع «تل أبيب» بصفة خاصة قبل عام 1967. قيادة موحدة بين دمشق والقاهرة نعنى:

أ ـ قدرة صُلْبة تفرض على جميع القوى الأخرى فى المنطقة الانصياع لمصر ـ بغداد، عمان، الرياض ما كانت تستطيع أن تناوئ القاهرة.

ب ـ أن هذا يعنى كماشة ضخمة ـ تخضع لإرادة واحدة ـ تحيط بإسرائيل من الشمال والجنوب. ضرب العالم العربى فى تلك الفترة من جانب إسرائيل، أمر كان صعب المنال، بل وكان من المستحيل تصوره.

الحقيقة الثانية ـ كذلك فإن هذا الانفصال يزيد من قناعة القوى المعادية بضرورة ضرب مصر وإضعاف نظامها. وحدة مصر مع سوريا تعيد للذهن فتوح «محمد على» وكيف قادت إلى تصميم الحكومة البريطانية على تحجيم «محمد على» وإخراجه من القوى الدولية المتحكمة فى منطقة الشرق الأوسط، بل إنه منذ **ذلك التاريخ يبدأ التفكير الحقيقى فى إنشاء إسرائيل لمنع مصر من تجاوز شبه جزيرة سيناء.**

الحقيقة الثالثة ـ فشل الإدارة المصرية فى التعامل مع البلاد العربية، وهناك فارق جوهرى بين تعامل الإدارة المصرية مع البلاد العربية وسياسة مصر الخارجية. والغريب أن نفس الظاهرة تكررت قبل ذلك ـ أثناء حكم «محمد على»، وذلك رغم أن العلاقة الإقليمية بين مصر والشام كانت مستمرة، ولم يكن هناك انفصال إقليمى بين مصر وسوريا، كما كان الأمر مع «جمال عبد الناصر»، الأمر الذى كان يَفْرض على مصر أن تكون أكثر حساسية. الواقع أن خبرة الكاتب الشخصية أثناء الوحدة بين مصر وسوريا تؤكد أن الفرقة كانت مسؤولية الجانبين ـ الإدارة المصرية وقد أصابها الغرور، والقوى السورية وقد وقفت تتصيد الأخطاء. النتيجة هى التى تعنينا وهى أن مصر الثورية لم تكن صالحة لتطويع القوى السياسية فى سوريا، رغم الفرصة الذهبية التى أتيحت لها.

«جمال عبد النا صر» لم يفهم هذه الحقائق !!

فسياسة مصر الخارجية ـ عقب الانفصال ـ كانت استفزازية عنيفة تدل على عدم احترام القوى الدولية. لم يمض عام دون قطيعة مع إحدى الدول الكبرى. وهو قد ترك تلك القيادة الفاشلة أثناء الوحدة تسيطر على القدرات المصرية. وهو ورَّط مصر فى اليمن ودون إدراك حقيقى بأبعاد القوى التى سوف يتعين عليه الصدام بها، وهو قد أفسد علاقته بجميع القوى الحقيقية القادرة على مساندته فى معركته القادمة.

ولنحدد الأخطاء بدقة وو ضوح :

أ ـ لم يحاول تنظيف إدارته ـ وهو فى طريقه إلى القتال مع إسرائيل ـ فى حرب كلية شاملة، مستفيدا بنتائج وخبرة فشله فى سوريا، وقبل ذلك بقصة حرب 1956.

ب ـ وهو فتح جبهات جديدة لا صلة لها بالمعركة الحقيقية ـ وبصفة خا صة فى اليمن ـ بل ونزل إلى ميدان المعركة وقواته الحقيقية تبعد عن هذا الميدان آلاف الأميال، وكان من الممكن أن تستأ صل بحريا أثناء عودتها من اليمن إلى مصر ـ عقب هزيمة القوات المصرية فى سيناء ـ ولو أن القيادة الإسرائيلية كانت على وعى بحقيقة إمكانياتها لما كانت قد ترددت فى تحقيق ذلك الهدف. وهو قد ترك الصحافة المعادية بحق أو بغير حق تعلن فى كل مكان أنه دخل اليمن تحت تأثير وتوجيه سوفيتى ـ بقصد الو صول إلى منطقة الخليج من الباب الخلفى.

جـ ـ وهو فى داخل مصر أ ضعف الجسد بصورة وا ضحة. «الإخوان المسلمون»[1] كانوا

(1) تلقت الأمانة العامة بالجامعة العربية برقية من جماعة الإخوان المسلمين بمصر جاء فيها: أن جماعة الإخوان لا ترى سبيلاً لإنقاذ فلسطين الشقيقة إلا بالقوة؛ ولهذا فإنهم يضعون (عشرة آلاف) من خيرة شبابها المجاهدين ككتيبة أولى فى جيش الإنقاذ للزحف العملى عند أول إشارة، وتلقت الأمانة برقية أخرى بنفس المعنى من شعبة الإخوان المسلمين بالإسكندرية . «محاضر مجلس الجامعة العربية د/ 7ج/ 2 فى 8 أكتوبر عام 1947، ص 13. ونفس المصدر د/ 7ج/ 4 فى 11 أكتوبر 1947، ص.48».

يمثلون القوة الوحيدة القادرة على أن تقوم بدور رأس الحربة فى صدامه مع إسرائيل، ولم يتردد لإر ضاء «واشنطن» أن يضعهم فى السجن. وقد ظن أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تقبل هذا المقدم، متناسيا أن منطق الدول العظمى لا يعرف سوى لغة المصلحة البعيدة المدى. كان عليه خلال العامين السابقين على حرب يونيه أن ينسى جميع خلافاته، وأن يكتل جميع عنا صر الجسد المصرى خلف قيادته، وطالما قد قررت أن تلجأ إلى لغة القوة العضوية، فيجب أن تكتل تلك القوة العضوية فى قبضة واحدة. منطق إدارة الصراع يجب أن يستند إلى التجانس بين فلسفة الصدام وأدواته.

د ـ وهو ما حدث أيضا فى تعامله مع العالم العربى. كان عليه أن يلقى جانبا جميع مشاحناته مع العالم العربى، مع القوى المحافظة، مع حزب البعث العربى، مع اليسار الذى كان قد بدأ يطل من جحوره. كان عليه على الأقل أن يعيد وأن يضيق من حدة الخلافات ليجمع جميع القوى فى قبضة واحدة استعدادا للنزال.

ولكن هذا لم يحدث، بل إن الملك حسين عندما طار قبل القتال بعدة أيام إلى مصر، كان يجد السباب الموجه لشخصه ولأسرته، وهو لا يزال مسجل على حائط المبانى فى مدينة القاهرة.

مرد جميع هذه الأخطاء ثلاثة متغيرات:

الأول ـ أن «جمال عبد النا صر» لم يحدد أهدافه ولم يرتبها بو ضوح ترتيبا تصاعديا يسمح له بالتمييز بين الأهم والأقل أهمية، ولو فى لحظة الصراع.

الثانى ـ أن «عبد النا صر» لم يزن خصومه الوزن الحقيقى.

الثالث ـ أن «عبد النا صر» تصور أن قيادة الصدام ليست فى حاجة إلا إلى شخص واحد، وتصور أنه هو وحده قادر على قيادة الصراع.

عقب حرب 1967 تغير «عبد النا صر»، ولكن الظروف لم تسعفه لتحقيق أهدافه.

«أنور السادات» عندما و صل إلى السلطة لم يختلف كثيرا عن «عبد النا صر» فى هذه العنا صر التى منعته من أن يقود الصراع قيادة حكيمة. فهو بدوره لم يعط لخصومه وزنهم الحقيقى، وظن أنه قادر على التلاعب بجميع القيادات. التى تعامل معها؛ لأنه أكثر منهم دهاء، فوقع فى نفس المطب الذى وقع فيه «عبد النا صر» عام 1967، مع خلاف فى التفا صيل وخلاف فى التعامل، نتيجة الخلاف فى الشخصيتين من جانب، والخلاف فى كل الموقفين من جانب آخر.

لنستطيع أن نفهم حقيقة هذا الخلاف، علينا أن نميز فى تاريخ «أنور السادات» من حيث تعامله مع إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، بين ثلاثة مراحل:

الأولى ـ حتى حرب أكتوبر.

والثانية ـ منذ حرب أكتوبر حتى زيارة القدس فى نوفمبر 1977.

والثالثة ـ حتى مقتله فى أكتوبر عام 1981.

المرحلة الأولى ـ وحتى حرب أكتوبر، تتميز باستمرارية مفاهيم «عبد الناصر»، وقد تقمصت شخصيته شخصية «أنور السادات». القناعة بأن المعركة كانت أساساً معركة مصرية هو إدراك أبرزه «عبد الناصر» خلال حرب الاستنزاف. الإيمان بأن ما أُخذ بالقوة يجب أن يسترد بالقوة، هو فلسفة جمعت بين فترة حكم «عبد الناصر» عقب هزيمة يونيه وفترة رئاسة «السادات» قبل انتصار أكتوبر. مما لا شك فيه أن «السادات» تعلم من هزيمة يونيه، ولكنه لم يتعلم بالقدر الكافى لأن ينجح حقيقة فى حرب أكتوبر. «السادات» حقق خلال تلك الفترة ثلاثة إنجازات: تجميع العرب من حوله، اتخاذ القرار بالعبور، ثم استخدام سلاح البترول فى المعركة، ولكنه كان يستطيع بشىء من الحنكة أن يحقق ما هو أكثر من ذلك. خذله الفكر العسكرى، ولكنه هو الذى لم يعرف كيف يُوظّف الفكر العسكرى.

عندما حدثت الثغرة، فقد القدرة على التعامل مع الموقف. وكان «كيسنجر» يقف له بالمرصاد.

المرحلة الثانية ـ تبدأ مع أحداث حرب أكتوبر، وقد بدأت خلالها تبرز خصائص شخصية «السادات». يقول علماء التحليل النفسى: إن الصدمة العنيفة تقود الشخصية الفردية إلى واحد من اثنين: إما التماسك والقوة، فتصير الشخصية أكثر صلابة منها قبل الصدمة. وأما التهلهل والتحلل، فتصير الشخصية وقد فقدت قدرتها على التعامل، لو قورنت بما كانت عليه قبل الصدمة. وهذا ما حدث مع الرئيس «السادات» عقب الثغرة عندما وجد نفسه فجأة عُرضَةً للهزيمة[1]، وجيشه الثالث محاصر، وقوات العدو على مقربة عدة دقائق من عاصمته. لقد برزت فى صورة واضحة حقيقة الرئيس «السادات» فهو ليس زعيم، ولكنه رجل دولة عادى. وهو ليس قائد ثورى، ولكنه حاكم يريد أن يستقر فى مقعد السلطة. وهو بورجوازى يحب الحياة المرفهة، ولا يحتمل مواجهة المشاكل. وهكذا راح خلال هذه الفترة يتهرب من حقيقة الموقف. برز ذلك واضحاً فى زيارته للقدس. إن هذه الزيارة التى لا يزال المحللون يتساءلون عن سرها، لم تكن إلا عملية هرب إلى الأمام. ذهب إلى أمريكا ـ صيف عام 1977 فلم يُقابَل من القيادات الأمريكية ـ وهى قيادات فى تلك اللحظة هشة، غير قوية ـ إلا بالاستهتاروالاستخفاف. فعاد وقد قرر أن يلغى الوسيط الأمريكى. وفى القدس. وُوجه بمواقف التسلط والغباء.

---

(1) وهو السبب فى هذه الثغرة.

خطاب «مناحيم بيجن» قمة فى هذه الناحية، أى زعيم عربى ـ عَقِب كلمات القائد الصهيونى، كان يجب أن يفهم أن الباب قد أُوصد أمام أى محاولة لتناول الصراع وإدارته ـ من خلال مفهوم التفاوض ـ وأن فعل ذلك فباستراتيجية معينة. إن الاستسلام أيضاً فن له قواعده، ولم يكن مم يسعفه أن يتهالك على «مناحيم بيجن».

عقب زيارة القدس توالت الأخطاء والاندفاع، وفقد الرئيس «السادات» كل قدرة على التوازن، فكانت المأساة التى لا نزال نعيش فى المستنقع الذى خلقته أحداث تلك الفترة.

مرة أخرى نجد هذه الأخطاء محورها الحقيقى متغيرين أساسيين:

الأول ـ الغرور القيادى، حيث الرئيس «السادات» لم يكن بذلك الخصوص يختلف من حيث جوهره عن «جمال عبد الناصر»، مع ذلك الفارق أن الأخير كان يملك صفات القيادة الحقيقية «السادات» لم يكن يؤمن إلا بشخصه، ولا يثق إلا فى قدراته، وكل من كان حوله أصفار. بطبيعة الحال هو لم يبحث إلا عن قيادات هشة تافهة لتزين مجلسه، ولكنه كان يعتقد عن قناعة أنه لا يملك سوى تلك القيادات.

الثانى ـ أنه لم يعرف كيف يزن ويصدق خصومه وأعداءه. فهو لم يفهم حقيقة القدرة الإسرائيلية فى النطاق الدولى. وتصور أن قضاء عدة أيام مع «كارتر»[1] سوف يحيل القيادة الأمريكية إلى قيادة صديقة. واعتقد أنه عندما يمارس دور الثعلب مع «كيسنجر» ثم عقب ذلك مع «مناحيم بيجن»، أنه قادر على أن يضع أيا منهما فى جيبه»[2]. وكان عليه أن يكتشف أن كل ذلك خطأ جوهرى فى تعامله مع الموقف. لقد اكتشفت فجأة أن الذى وضعه فى جيبه هو «كيسنجر»[3] ثم عقب ذلك «مناحيم بيجن»، ولكن ذلك قد تم بمساعدة أنصاره ومن حوله ـ من هم أقرب الناس إليه ـ بإخضاعه لعملية غسيل مخ عنيفة. انتهى به الأمر لأن يجد نفسه فى لحظة معينة ولا يقف جواره أى قوة حقيقية صديقة ـ حتى فى داخل بلده. فكانت المأساة.

وهنا تبرز حقيقة الدور الذى يجب أن تلعبه النخبة القيادية. عليها أن تحيط القائد وتحميه حتى ضد نفسه. هذا درس يجب أن يتعلمه كل قائد وهو يختار أعوانه. ليست وظيفة الأعوان أن تصفق، ولكن وظيفتها الأساسية أن تخلق قنوات الاتصال بين القائد وأمته ـ كمصالح قائمة، وكتراث تاريخى، وكقيم ثابتة، تتحدى الحاضر والماضى ـ لتلقى بالمجتمع كلية فى سراديب المستقبل.

---

(1) مع أنه هو الذي هدده بالتخلى عنه مما أجبره على التوقيع على اتفاقية «كامب ديڤيد».

(2) «كامب ديڤيد في نظر وزراء الخارجية المصرية»؛ لأن الرئيس السادات قال: إننى أريد أن أعمل فرقعة فقط!! ولكنه تورط فى ذلك مع كارتر.

(3) المصدر السابق.

الخلاف بين قيادة السادات وقيادة جمال عبد الناصر في إدارة الصراع العربي ـ الإسرائيلي :

رغم ذلك، فالخلاف الجوهرى بين «السادات وجمال عبد الناصر»: أن الأول استطاع بصبر ودقة أن يميز بين أهداف مصر القومية، وأهداف الأمة العربية، ويعطى الأول فقط تلك الأولويات بالترتيب الواضح الذى سمح له بالانتصار فى حرب أكتوبر.

أ ـ فهو لا يعنيه استئصال إسرائيل، ولكن يعنيه أن يبعدها من إقليم مصر القومى.

ب ـ وهو لذلك مؤمن بضرورة استئصال إسرائيل من المنطقة، ولو بتحويلها إلى دولة غير صهيونية.

جـ ـ وهو لا يستطيع أن يرى صداماً بين مصر وإسرائيل، ورغم تحمل مصر عبء هذا الصدام ـ دون أن تقف خلفه القدرة العربية فى سلم قيم الصدام ـ يجعل القيمة العليا الأولى هى قيمة التضامن العربى أيًا كانت عناصره.

د ـ وهو يدرج الخلاف المصرى الإسرائيلى فى دائرة الخلاف العربى ـ الإسرائيلى، ولا يقبل التجزئة أو الفصل بينها.

هذا الخلاف ينبع من خلاف فى الشخصيتين. الأول ـ عبد الناصر ـ قائد ثورة وزعيم انقلاب، الثانى «أنور السادات» رجل دولة ومدير حكومة. الأول «عبد الناصر» ذئب شجاع يلقى بنفسه فى المعركة ولا يهاب ولا يخاف الجروح والكدمات. الثانى «أنور السادات» ثعلب ماكر يحتال على عدوه، ثم ينقض عليه من الخلف مجنبًا نفسه أية إصابة. ولكن الأخطر من كل ذلك ينبع من تناقض فى الإدراك. وهنا تبرز المسؤولية الحقيقية للفكر السياسى، الذى لم يعرف كيف يحلل حقيقة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وكيف ينقل هذه الحقيقة بلغة العلم إلى كل من القائدين.

وهكذا فشل «عبد الناصر» فى إدارة الصراع.

وفشل «أنور السادات» فى التمييز بين دوائر الصراع.

ولو أردنا تقييما حقيقيا لكليهما؛ لكان علينا أن نعترف بأن أيا منهما لم يكن يصلح لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. الأول «عبد الناصر» يصلح لأن يكون زعيما لثورة التحرر. والصراع العربى ـ الإسرائيلى ليس مجرد ثورة تحرر، إنها ثورة بناء، لحضارة جديدة تستطيع هى وحدها أن تضع حدا للتسلل إلى المنطقة بقصد استيعابها، وبناء على أنقاضها حضارة جديدة.

الثانى «أنور السادات» لعمليات المحاورة والمداهنة[1]، وليس للصراع المصيرى الذى

---

(1) حتى المحاورة والمداهنة فن لم يكن يجيده «السادات»، وذلك بشهادة وزراء خارجيته. راجع كتاب: «كامب ديڤيد فى عيون وزراء خارجية مصر» تأليف محمود فوزى، مطبعة مدبولى.

يفترض فى قائده أن يَحْمِل حياته على يده، ولا يتردد فى أن يضحى بها ـ لو فرضت ذلك الظروف أيًا كان الموقف.

الصراع العربى ـ الإسرائيلى لا يزال يبحث عن قائده العربى

فلنحاول من خلال هذه النماذج أن نرسم أمام من يتولى هذه القيادة ـ فى الأعوام القادمة ـ إن شاء الله ـ أن يكون على وعى حقيقى بأبعاد ذلك الصراع، بما فى ذلك عملية إدارته».

obeikandl.com

المحور الرابع

نموذج إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى عند مناحيم بيجن

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«إدارة الصراع من الجانب الإسرائيلى تثير الكثير من التساؤلات لأول وهلة هى قيادة ناجحة، وقد حققت الكثير من المكاسب، ويكفى أن نتذكر كيف كانت إسرائيل فى بداية وجودها وأين هى اليوم. أكثر من محلل يهودى لا يزال غير مصدق عينيه. ولنتذكر فقط بعض مظاهر هذا النجاح:

أولا ـ الهزيمة العربية فى ميدان القتال فى جميع حلقات الصدام العضوى، فإن إسرائيل خرجت بدرجة أو بأخرى منتصرة، ورغم أن هذا الانتصار اختلفت درجاته، إلا أنه ظاهرة ثابتة.. فهو ساحق فى 1967 وهو بالاشتراك مع دولتين عظيمتين فى 1956، وهو ناجح فى 1948، وهو موضع تساؤل فى حرب الاستنزاف، ولكن دائمًا لصالح «تل أبيب». وهو قد بدأ بانتصار مصرى ـ سورى، ولكنه انتهى بالوصول إلى قلب الدولتين بالقرب من العاصمة.

فى حرب 1973، وهو مهما قيل عن تغير فى الجندى الإسرائيلى، وتفسخ فى القيادة الصهيونية، فإنه فى عام 1982 قد حقق أهدافه فى لبنان. هناك هزيمة ثابتة وفشل واضح من الجانب العربى فى جميع مراحل الصدام. جولات ست أثبتت قدرة القيادة الإسرائيلية على التلاعب بالموقف وتحقيق الأهداف.

ثانيا ـ وهى من جانب ثان استطاعت أن تفرض على الأمة العربية التحلل والتفسخ، وتكفى متابعة تاريخ الصراع فى مراحله المتعاقبة لنرى كيف أن هذه القناعة ـ بالوحدة والتضامن ـ تسير فى خط عكسى لتاريخ تطور الصراع. وقد ارتبط بذلك فقد للهيبة الدولية حتى لمصر ـ ذات التاريخ العريق ـ بهذا الخصوص، وليس علينا سوى أن نقارن موقف العالم العربى فى عام 1956 وموقفه فى عام 1982 لقد كانت الأمة العربية ونصفها لا يزال مستعمرًا صوتًا واحدًا أثناء العدوان الثلاثى، بينما والشعب اللبنانى يُستأصل لم يرتفع صوت واحد حقيقى بالاعتراض، ولنتذكر مذابح «صبرا وشاتيلا» على سبيل المثال.

ثالثا ـ ثم هى استطاعت أن تتوسع باستمرار، فلنتذكر كيف كانت إسرائيل قبل حرب 1967 وماذا أصبحت عقب تلك الحرب. ولا **يجوز أن يخدعنا الانسحاب من سيناء الذى**

ارتبطت به عوامل أخرى، كذلك يجب أن نتذكر أن التوسع لا يزال فى خطيه ـ رأسى وأفقى ـ فى آن واحد، أفقى يضم أراضى جديدة، ورأسى بتدعيم وتعميق الاستماء اليهودى.

رابعا ـ وهى قد استطاعت أن تطوّع جميع القوى الدولية للدفاع عن مصالحها بشكل أو بآخر، كان أول من ناصرها الاتحاد السوفيتى، ورغم تعديل موقفه إلا أنه لا يزال متمسكًا بحق إسرائيل فى شرعية البقاء.

كل من فرنسا[1] وألمانيا وبريطانيا أسهمت بشكل أو بآخر فى الدفاع عن المصالح الإسرائيلية. صحيح أن موقف هذه الدول أقل صراحة فى التحدى، ولكن النتيجة واحدة، وهى أن الأمة العربية شربت السم بغزارة من أيدى الدول الثلاث[2] اعتداء عام 1956 الذى ثبت الشرعية الإقليمية هو تحالف بين إسرائيل وكل من «فرنسا وبريطانيا». السلاح الذى استخدم فى حرب 1967 كان سلاحًا فرنسيًا. حتى هذه اللحظة القدرة النووية الإسرائيلية هى نتيجة تعاون وثيق بين «تل أبيب وباريس» الذى أنفق فعلاً على حرب 1967

(1) «فرنسا وإسرائيل» د. محمود حسن صالح منسى، أستاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الأزهر 1994، ص 93، ص 95، حيث يقول: «وبعد اعتراف فرنسا بإسرائيل صارت السياسة الفرنسية تسير فى خطين متوازيين: تأييد إسرائيل، ومراعاة مشاعر العرب. إلا أن هذه السياسة لم تنجح بسبب حرب التحرير الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى الذى كان العرب ينظرون إليه نظرة سُخْط لا يقل عن سخطهم نحو الكيان الإسرائيلى، الأمر الذى دفع «فرنسا» لزيادة تعاونها مع إسرائيل، على أساس أن لهما عدوًا واحدًا مشتركًا هو الدول العربية. وفى 25 مايو ـ آيار ـ 1950 كانت فرنسا قد اشتركت مع «بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية» فى إصدار التصريح الثلاثى من أجل ضمان أمن إسرائيل والمحافظة على خطوط الهدنة، وعدم بيع الأسلحة للطرفين إلا بشروط معينة».

(2) الدول الثلاث «فرنسا وإنجلترا وإسرائيل» وهو ما يسمى بالعدوان الثلاثى، نعم شربت السم من الأصدقاء قبل الأعداء، قال الدكتور محمود حسن صالح منسى فى كتابه «فرنسا وإسرائيل» ص 164، ص 165: «وكان من المتوقع أن يبدأ البريطانيون فى قصف المطارات المصرية عند انتهاء مهلة الإنذار فى الرابعة والنصف من بعد ظهر 31 أكتوبر ـ تشرين أول ـ أو بعد ست وثلاثين ساعة من بدء الهجوم الإسرائيلى ضد مصر، ولكن تأخرت العملية، الأمر الذى أزعج «بن جوريون» للغاية، وأبدى رغبته فى سحب المظليين الإسرائيليين من موقعهم المتقدم عند ممر «متلا» خوفًا من تطويقهم، ولعله كان يناور حتى يحث حلفاءه على تنفيذ الجزء الخاص بهم من الخطة، وقد أثناه «ديان»؛ لأن هذه القوة من المظليين كانت هى الوحيدة التى يمكن اعتبار أنها تهدد القناة، وبالتالى تبرر المؤامرة التى دبرها حلفاء إسرائيل للاستحواذ على القناة. وعند الغسق يوم 31 أكتوبر انضم طابور مدرع إلى المظليين فى «متلا»، وكانت معنويات الحكومة الإسرائيلية مرتفعة طالما المقاتلات الفرنسية قد نشرت مظلة جوية دفاعية فوق مدن إسرائيل، كما أن المدمرات الفرنسية وفرت الحزام البحرى Ceinture Maritime على سواحل إسرائيل فى عملية منفصلة عن عملية الفارس Musketeer، وقامت إحدى هذه القطع الفرنسية بإطلاق النار على المدمرة المصرية ـ إبراهيم الأول ـ قبل ساعة من انتهاء مهلة الإنذار». وهكذا شربت الأمة السم من الأصدقاء «فرنسا ـ إنجلترا ـ ألمانيا ـ أمريكا». وهلم جرا.

كانت ألمانيا ـ وخلف كل هؤلاء ـ تلعب دورها الخفى «بريطانيا»، وذلك دون الحديث عن «الولايات المتحدة» حتى دول العالم الثالث والأسرة الإسلامية وقفت بعض عنا صرها إلى جانب «إسرائيل».

خامسا ـ وهى مكنت «الولايات المتحدة» من فرض إرادتها على المنطقة العربية. السياسة الأمريكية فشلت فى كل مكان فى أوربا، حيث انتهت كما نرى اليوم، والقيادة الأوربية تسعى زاحفة على قدميها تطلب من الاتحاد السوفيتى أن يرضى عنها فى أمريكا الجنوبية، ولم يعد أحد من المجتمع الجماهيرى ينظر إلى «الولايات المتحدة» إلا على أنها مغتصبة تُعبِّر عن أسوأ تقاليد الاستعمار فى جنوب شرق آسيا، وقد بدا واضحًا حقيقة التحدى القادم للإرادة الأمريكية، ولكن هذه السياسة الفاشلة فى كل مكان نجحت فى منطقة الشرق الأوسط نجاحًا ما كانت تحلم به نفس القيادات الأمريكية. مصدر هذا النجاح الحقيقى هو الإرادة الإسرائيلية فى المنطقة.

سادسا ـ وهى ـ أى إسرائيل ـ لم تقتصر على تطويع القوى الدولية لصالحها، وأن تُوَجِّه السياسة الأمريكية فى المنطقة، بل وأن تخاطب القوتين الأعظم على قدم المساواة إسرائيل ـ الدولة الصغيرة التى لا تمثل أى أهمية فى صراع العمالقة وقفت عام 1967 تخاطب كلاً من «واشنطن وموسكو» بلغة الندية. فلنتذكر تهديد إسرائيل للاتحاد السوفيتى على لسان «موشى دايان» عقب حرب يونيه، ولنتذكر تعامل القيادة الإسرائيلية مع «كارتر» فى لحظة معينة. لقد استطاعت أن تعيد تشكيل التوازن الإقليمى لصالحها فى عام 1967، وفى خلال الفترة اللاحقة طورت علاقاتها بالولايات المتحدة لتخلق التهديد فى القناعة السوفيتية. واليوم نعاصر نتائج ذلك، سواء فى سياسة «موسكو» أو فى نفس سياسة «واشنطن» من حيث توظيف إسرائيل لصالحها، ليس فقط ضد المنطقة، بل وفى علاقتها مع دول حلف الأطلنطى لم يعد خافيًا أن أحد عناصر التوافق الإسرائيلى الأمريكى، أن الأول سوف تستخدم فى لحظة معينة لو حدث ذلك، لإيقاف التدفق اليسارى العسكرى فى وسط أوربا باستخدام القنبلة النووية التكتيكية.

سابعا ـ وهى استطاعت تحطيم الحصار الذى أقامته حولها الدول العربية ليس فقط بمعنى التسلل التجارى، بل بمعنى التعايش الذى يكاد يصير نوعًا من التحالف الواقعى. سياسة «كامب ديڤيد» نموذج واضح وصريح. ما يجب أن نتذكره بذلك الخصوص أمرين:

الأول ـ أنه لا توجد سياسة «كامب ديڤيد» واحدة، بل هى متعددة، وأكثر من دولة عربية واحدة اتبعت سياسة «كامب ديڤيد» دون أن تعلنها

والثانى ـ أن التسلل إلى داخل الأمة العربية بوسائله المتعددة أخطر من سياسة «كامب ديڤيد» ولنتذكر أن سياسة الجسور المفتوحة مع الأردن سابقة على «كامب ديڤيد» بأكثر من عشرة أعوام.

بأكثر من عشرة أعوام.

ثامنا ـ وهى استطاعت أن تخلق رأيًا عامًا دوليًا يساند شرعيتها، ويقف من الدفاع عن بقائها. وشرعية هذا البقاء ـ بصلابة وعناد إسرائيل فى وضعها الحالى ـ دولة غير شرعية بأى معنى من المعانى، فهى قد توسعت بالحرب والقوة، وهو أمر يخالف جميع النصوص الدولية، وهى إذا كانت تستند فى شرعيتها إلى قرار التقسيم، فهى لم تحترم هذا القرار، فكيف يقف الرأى العام الدولى إلى جانبها بهذا الخصوص؟ بل إن نفس منظمة التحرير انتهت بالاعتراف بشرعية وجودها فى صورتها المخالفة للقرار الدولى للتقسيم.

تاسعا ـ بل إنها لا تزال تحظى بتأييد طبقات ضخمة ـ رغم سلوكها الاستفزازى، وتحديها لجميع قرارات الأمم المتحدة، بل ورفض الانصياع إلى نصح نفس أصدقاء إسرائيل فى بعض الأحيان. لقد استطاعت أن تخلق لها أنصارًا، بل ومعاونين ـ أو على الأقل ـ متفهمين لقضيتها من وجهة نظرها، فى داخل الوطن العربى، بل وبين الفلسطينيين أنفسهم، وذلك رغم عزلتها الدولية التى وصلت فى بعض الأحيان إلى مستوى كان يجب أن يفرض عليها اليأس الحقيقى.

عاشرا ـ وهى اليوم تستخدم مصر فى سبيل خلق طرق التسلل إلى النظام الدولى، الذى سوف يسيطر على منطقة الشرق الأوسط بما يعنيه ذلك من أمرين: تمزيق النظام القومى العربى، حيث سوف يتم استبعاد منطقة المغرب العربى من جانب، وإدخال أطراف أخرى فى النظام، بحيث تضعف فى داخله الإرادة العربية، وهى «إيران وتركيا» إلى جانب إسرائيل من جانب آخر، وذلك كله مقدمة لتصفية الكيان العربى.

لا نزال فى البداية، ولكن هذه الصورة القائمة تطرح ثلاثة تساؤلات :

الأول ـ لماذا نجحت إسرائيل فى إدارة الصراع بهذه الصورة الواضحة؟

الثانى ـ أين قيادة الصراع العربى ـ الإسرائيلى من الجانب الصهيونى فى هذا النجاح؟

الثالث ـ ما هى سياسة إسرائيل خلال الأعوام القادمة، وكيف تخطط لإدارة صراعها فى المنطقة؟

مناحيم بيجن وتقاليد السياسة الخارجية الإسرائيلية:

المتتبع لسياسة إسرائيل الخارجية ـ وبصفة خاصة فى كل ما يتصل بإدارة الصراع فى المنطقة ـ يلاحظ أنها تخضع لقواعد مقننة وثابتة لم تتغير فى جميع مراحل تطور العلاقات بين إسرائيل ودول المنطقة. ورغم أن هذه السياسة قد تغيرت من حيث مضمونها عقب وصول كتلة «ليكود» إلى السلطة، ولعل هذه القواعد فى ذاتها أحد أسباب نجاح

الخارجية ينبع من تلك المبادئ.

فلنحاول أولاً تحديد التقاليد الإسرائيلية، والتى وضعها منذ بداية تكوين هذه الدولة «بن جوريون» النبى المسلح:

أولا ـ ضرورة التمييز الواضح بين مراحل التعامل السياسى ـ صنع السياسة ـ صنع القرار ـ تنفيذ القرار ـ إدارة الصراع.

ثانيا ـ مرونة الحركة بمعنى التقدم خطوتين والتراجع خطوة.

ثالثا ـ فصل العمل فى وزارة الخارجية عن النشاط الحزبى.

رابعا ـ سيطرة المفهوم العلمى على إدارة السياسة الخارجية.

خامسا ـ تمركز السياسة القومية بجميع عناصرها، حول مبدأ سيادة مفاهيم الأمن القومى.

سادسا ـ اعتماد مبدأ تعدد الأدوات فى تنفيذ السياسة الخارجية.

سابعا ـ الالتجاء إلى مبدأ توزيع الأدوار مع الإخراج المسرحى فى كل ما له صلة بالتعامل الخارجى.

ثامنا ـ اعتماد مبدأ الإرهاب الفكرى والتخويف منطلقًا أساسيًا فى التعامل مع العالم العربى.

تاسعا ـ النظرة إلى العالم بأجمعه على أنه يقف من إسرائيل موقف العداوة، وعلى أن إسرائيل ليس لها صديق ولا تستطيع أن تعتمد على أى قوة ولو تظاهرت بالصداقة.

هذه العناصر التسعة تمثل التقاليد الثابتة فى السياسة الخارجية الإسرائيلية. وهى تقاليد ثابتة فى جميع مراحل تطور سياسة إسرائيل الخارجية، وأساليب إدارتها للصراع فى منطقة الشرق الأوسط . سوف نرى كيف أن فلسفة هذه الإدارة اختلفت مع مجيء كتلة «ليكود» إلى الحكم، وتحكم «حيروت» فى نظرته إلى محور وهدف ذلك الصراع، ومن ثم أساليب إدارته بحيث يمكن القول بأن السياسة الصهيونية فى المنطقة تعرف فى خلال الفترة ـ بصفة خاصة ـ منذ عام 1977 حتى اليوم فلسفة وإدراكًا مختلفًا كل الاختلاف عن ذلك الذى ساد القيادة الإسرائيلية حتى عام 1967، اختلافًا كليًا وجذريًا، إلا أنها ظلت فى كل ما له صلة بالتقاليد الإجرائية واحدة لم تتغير، ولعل هذا أول أسباب النجاح الإسرائيلى فى الإدارة، أنها لا تنبع فقط من مفاهيم قائد معين، ولكنها على العكس من ذلك تعبير عن تصور وإدراك قيادى، أو بعبارة أخرى: هى حصيلة إدراك جماعى متماسك وليست مجرد اجتهادات فرد معين تختفى مع نهاية عصره. مما لا شك فيه أن «بن

جوريون» أسهم فى ذلك بطريقة فعالية، ولكنه لم يتعد أن يدخل فى بناء تلك التقاليد، وحتى عندما ترك الحكم فى حياته، وقبل مجيء «ليكود» ظلت التقاليد راسخة ومحترمة.

ما هى أولا هذه التقاليد ؟ وكيف تعامل معها مناحيم بيجن؟

أول هذه التقاليد : التمييز الواضح بين مستويات العمل السياسى، المكان لا يسمح بالتفصيل، ولكن بصفة عامة كل من مستويات الحل السياسى له طبيعته، ومن ثم له أساليبه.

صنع القرار عملية نظرية تتدخل فيها تقاليد الدبلوماسية الصهيونية السابقة، على إسرائيل نفسها لم يشكك أحد فى تلك التقاليد، وظلت دائمًا موضع احترام. صنع السياسة الخارجية، بما فى ذلك التعامل مع موضوع الصراع لا ينبع إلا من مبدأ واحد، وهو مفهوم الأمن الإقليمى، وهو مفهوم مطلق يتحكم فى جميع أبعاد العمل السياسى ـ بما فى ذلك السياسة الداخلية، بل والسياسة الاقتصادية، وكذلك السياسة الثقافية مفهوم واضح للأمن القومى الإقليمى مقنن ومحدد العناصر يتحكم فى أى بعد من أبعاد السياسة الإسرائيلية. صنع القرار السياسى يخضع لمبدأ آخر، وهو إخراج القرار السياسى من المناقشات الحزبية أو تدخل السلطة السياسية. لم تعرف الدولة العبرية قرارًا سياسيًا خارجيًا كان موضع المناقشة ـ سواء فى داخل الحزب الحاكم أيًا كان أو فى داخل الكنيست ذاته، بل وحتى فى داخل مجلس الوزراء فى صورته المكبرة. القرار يناقش فى دوائر ضيقة لمجلس الوزراء المصغر، ثم لجنة الكنيست للأمن القومى، وبعد ذلك وعندما تصل القيادة إلى قرار يحظى بقبول الأغلبية يطرح فى تلك الدوائر الأخرى، فقط للتصويت وهكذا، فرغم الحياة الديموقراطية، فهناك نوع من السرية يحيط بكل ما له صلة بإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. أما فيما يتعلق بتنفيذ السياسة الخارجية، فالمبدأ المطلق الذى لم يعرف استثناء هو تعدد الأدوات فى التنفيذ، وهذا يقود إلى عملية إدارة الصراع. **مبدأ المبادرة والهجوم خير وسيلة للدفاع**، إذا استثنينا نموذج حرب أكتوبر، فإن إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى كان دائمًا هجوميًا يسعى إلى الاختراق ولا يقبل الانتظار، وحتى فى حرب أكتوبر، فإن العكس اقتصر على عدة أيام سرعان ما أعقبها العودة إلى التقاليد الأولى، والجميع يسلم بأنه لن يتكرر ذلك النموذج فى أى مرحلة ومهما كانت الظروف.

المبدأ الثانى ـ وهو مرونة الحركة. إدارة الصراع تفرض فى الإدراك الإسرائيلى التقدم والتراجع. التقدم خطوتين ثم التراجع خطوة. إن هذا لا يعطى فقط الإدارة الإسرائيلية فرصة استرداد النفس، بل يربك العدو، فهو عندما يتصور أنه يخضع لهجوم سرعان ما يواجه التراجع، فيتصور الهزيمة أو التخلى عن السياسة الاستفزازية، وبينما يخفف من

غلوائه إذا به يصاب بضربة قاسمة، عندما يفاجأ بالطرف الإسرائيلي، وقد كتل كل قواه فى هجوم خاطف لم يكن يتوقعه. سوف نرى فيما بعد كيف أن هذه المرونة هى وحدها التى سمحت للقيادة الصهيونية مع «مناحيم بيجن» ورغم التهلهل الداخلى أن تظل فى دائرتها الهجومية.

الناحية الثالثة ـ وهى فى غاية الأهمية ـ حيث تعلو تلك الأهمية على مجرد إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. هناك **ثلاث مؤسسات فى إسرائيل ترفض تدخل الصراعات الحزبية أو الخلافات العقائدية. إنها قومية وفقط قومية:**

الجيش أولا والجامعة ثانيا، والعمل الدبلوماسى ثالثا. وزارة الخارجية الإسرائيلية لا تعرف ولا تسمح لنفسها فى أن تتدخل فيها الصراعات السياسية المختلفة.

ولعل هذا يفسر كيف أن خروج حزب «المابای» من السلطة ومجيء كتلة «ليكود» عقب قرابة ثلاثين عامًا، لم يحدث أى قلق فى إدارة السياسة الخارجية، وهو يفسر أيضًا كيف انتقل فى إدارة تلك الوزارة «موشى دايان» من حزب «المابای» إلى حزب «حيروت»، وهو الذى يقف من الأولى موقف التناقض المطلق فى فهم للقيم السائدة والمسيطرة على التعامل مع منطقة الشرق الأوسط.

كذلك فإن إدارة السياسة الخارجية ـ سواء على مستوى الإدارة المركزية فى الدولة العبرية، أو على مستوى العمل فى الأجهزة الدبلوماسية المنتشرة فى جميع أجزاء العالم ـ تخضع لمبدأ واحد ومطلق، وهو المفهوم العلمى فى العمل السياسى الخارجى. ومعنى ذلك عدة حقائق:

أولا ـ فالجهاز الدبلوماسى يؤمن بعملية جمع المعلومات المحلية المبوبة، بحيث إن أى سفارة تملك صورة كاملة لما يحدث فى دولة المقر، يساعدها على ذلك من جانب الجالية اليهودية. ومن جانب آخر التواصل مع أجهزة البحث وبصفة خاصة الجامعات ثانيًا، **ووزارة الخارجية ليست إدارات، ولكنها مجموعة مراكز للبحوث المتخصصة ثالثا، ثم رجال وزارة الخارجية على أكبر قسط من التخصص، حتى أن «بريشير» فى عام 1969 يخبرنا بأن أكثر من 60٪ من العاملين فى وزارة الخارجية يحملون درجة الدكتوراه ويتقنون أكثر من ثلاث لغات. وهنا نلحظ أن وزارة الخارجية الإسرائيلية انتفعت بتقاليد الدبلوماسية الصهيونية التى سبقت إنشاء إسرائيل بقرابة خمسين عاما.**

السياسة الإسرائيلية ـ منذ وجود الدولة وبجميع تطبيقاتها ـ تمركزت حول مفهوم حماية الأمن الإقليمى خلال الأعوام الأولى لوجود الدولة تمت صياغة هذا المفهوم وتقنينه، وأسهم فى ذلك مساهمة حقيقية «بن جوريون» ولكن بغض النظر عن عناصر هذا المفهوم وحقيقته التى لا تزال حتى اليوم يحيط بها غموض متعمد هى وحدها التى سيطرت على

جميع النشاطات فى داخل الدولة، فالسياسة الاقتصادية تنبع من ذلك المفهوم، بل والسياسة التعليمية لا تعيش إلا فى هذا الإطار. كل هذا سمح لهذه السياسة ـ أى السياسة الإسرائيلية ثلاث مزايا: التجانس بين مختلف السياسات **أولا**، والقوة فى التعامل بثبات واستقرار **ثانيا**، ووضوح الرؤية من جانب المسؤول عن السياسة الإسرائيلية **ثالثا**. كذلك فإن من بين تقاليد سياسة إسرائيل الخارجية أن تتعامل وتتحرك فى الإطار الدولى، معتمدة على أكثر من إدارة واحدة، وبصفة خاصة على الأقل فى منطقة الشرق الأوسط على أدوات ثلاث، وكل منهما تتبعها أكثر من أداة جانبية. **الأدوات الثلاث الأساسية: الدبلوماسية، والإعلام، والعمل العسكرى. فالإعلام يعد الرأى العام ولو بخلق الخوف والشك فى الذات.**

الإعلام هو أداة أيضًا أساسية للتسلل إلى الجسد العربى ـ وبصفة خاصة ـ باسم البحوث المشتركة ـ مع غير إسرائيليين ـ التى سمحت بتطويع الشباب المبتدئ وخلق أبواق غير واعية لتدعيم التحلل فى الكيان الذاتى. الحرب النفسية وغسيل المخ تدخل فى دائرة الإعلام. الاتصال قد يكون أيضًا غير مباشر، ولا يجوز أن ننسى ماذا نستطيع أن نفعله بهذا الخصوص. **الأقليات العربية، سواء المقيمة فى الوطن العربى، أوالتى قد خرجت منه، ولكنها لا تزال تمارس دورها المخرب. ولنذكر على سبيل المثال جمعية أصدقاء الشرق الأوسط التى تابع تفاصيل جهودها لتأييد الحركة الصهيونية المؤرخ الأمريكى «هاليرين» فى الستينات، وأعقبه فى السبعينات «سلفر برج».**

الدبلوماسية تمثل الإدارة الثانية، ويجب أن نتذكر فى التقاليد الصهيونية بخصوص ذلك مبدأين: **الأول** ـ وهو أن الأداة الدبلوماسية غير الوظيفة الدبلوماسية. هذه الأخيرة قد يعهد بها إلى غير الأداة الدبلوماسية «كالهستدروت» أو حزب «المابام». **المبدأ الثانى** ـ أن الدبلوماسية قد تكون مباشرة وقد تكون غير مباشرة، هى مباشرة لو أديت من خلال الأجهزة الإسرائيلية، ولكن **قد تلجأ الخارجية الإسرائيلية إلى جهاز دبلوماسى يتبع دولة أخرى لتؤدى نفس الوظيفة ـ وهو ما فعلته أيضا فى منطقة الشرق الأوسط، سواء من خلال تركيا أو إيران أو الحبشة.**

وأخيرًا يأتى متغير **الأداة العسكرية والجيش فى ذهن القيادة الإسرائيلية**، ليس فقط القدرات المتكتلة فى شكل قوى منظمة باسم أداة الدفاع، ولكنه يشمل أيضًا أدوات فاعلة ـ منها جهاز المخابرات، وكذلك أدوات التخريب المحلى. الذى يجب أن نتذكره أن إسرائيل لا تتحرك إلا على شكل جوقة متكاملة حيث كل أداة تُعدّ للأخرى أرض التعامل أو تحميها لحظة التراجع والانسحاب.

يكمل ذلك مبدأ توزيع الأدوار والإخراج المسرحى، ويكفى أن نتذكر أن تنظيف الصورة القومية لـ «مناحيم بيجن» عُهِدَ بها إلى قادة حزب العمل، وذلك رغم هزيمة هذا الحزب والصدام معه حول نفس مفهوم إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. وقد حدث ذلك عقب نجاح «ليكود» فى الوصول إلى الحكم فى عام 1977، بل هى المتغير الحقيقى الذى يسيطر على الطبقة السياسية فى الحكم، أو فى المعارضة التى تسيطر على إسرائيل رغم جميع الخلافات، **فهناك حدود معينة عندها يتفق الجميع، وتقف جميع القوى فى صف واحد متماسك، وأحد عناصر هذا التماسك ما يرتبط بإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى.**

«مناحيم بيجن» احترم تقاليد السياسة الخارجية الإسرائيلية، بل وكذلك تقاليد فهم طبيعة التعامل مع موضوع الصراع العربى ـ الإسرائيلى وإدارته ـ سواء فى الأمد القصير أم الأمد الطويل».

obeikandl.com

المبحث الثالث

ستة مبادئ صهيونية لم تتغير

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«يمكن القول بصفة عامة أن قواعد التعامل مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى تبرز عن مفاهيم مقننة ـ ظلت منذ وجود الدولة حتى اليوم ـ تمارس سطوتها على الإدراك الصهيونى. مما لا شك فيه أن «مناحيم بيجن» غيَّر فى عناصر هذا الإدراك، ولكن هناك مجموعة من الثوابت قد استقرت فى الوجدان، ولن يستطيع أحد أن يغير منها ـ مهما قيل عن السلام العادل، ولغة الحوار ـ هذه المفاهيم التى صاغها بدوره «بن جوريون»، التى تمثل قدس الأقداس فى التقاليد اليهودية، تقدم صورة واضحة لحقيقة التأثير الذى تركه ابن الصهيونية «بن جوريون» أيضًا بعد مماته.

إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى فى تقاليده الثابتة ـ من الجانب اليهودى ـ تقوم على ستة مبادئ ثابتة ـ لم يصبها أى تغيير جوهرى ـ فى جميع مراحل هذه الدولة قبل مجىء «مناحيم بيجن»، وكذلك بعد اختفائه:

أولا ـ تقوية الكيان الذاتى.

ثانيا ـ تثبيت الوجود الإقليمى.

ثالثا ـ استئصال الوجود الفلسطينى.

رابعا ـ تدعيم التحرك نحو تجزئة المنطقة العربية.

خامسا ـ التوظيف الثابت للإدارة الإسرائيلية فى النطاق الدولى.

سادسا ـ توظيف التوازن الدولى لإطلاق حرية «تل أبيب» فى المنطقة.

أيضًا هذه المبادئ لم يُغيِّر منها «مناحيم بيجن» وهى فى مجموعها منطقية مع طبيعة الدولة اليهودية.

المبدأ الأول واضح، فتدعيم التجانس بين أجزاء المجتمع السياسى والقضاء على عناصر التفرقة الداخلية، يجب أن تسيطر على أى قائد يتولى مسؤولية الحكم فى «تل أبيب»، وهى لذلك تسعى إلى تحقيق تلك التقوية الذاتية ـ من خلال ثلاثة مسالك مترابطة:

المسلك الأول فيما يتعلق بمقومات المجتمع الإسرائيلى ذاته بما فى ذلك المواطنون الفلسطينيون. وسوف نرى ذلك أكثر وضوحًا فيما بعد. **الثانى** فيما يتعلق بخلق المساندة

مع جميع القوى السياسية فى منطقة الشرق الأوسط الأقليات[1] من جانب، ثم التجمعات المهنية غير الحكومية من جانب آخر، وقوى الانفتاح الاقتصادى التى تضمن المنتفعين، وبصفة عامة الطبقات البورجوازية الجديدة، وذلك دون الحديث عن الشركات الكبرى المتعددة الجنسية، تصير جميعها أدوات غير مباشرة لتقوية الكيان الذاتى. **المسلك الثالث** هو خلق نطاقات المصلحة مع جميع القوى الدولية، حتى تلك ذات الأهمية المحدودة، وليست فقط القوى الدولية ذات تقاليد التعامل المباشر مع المنطقة، وحتى لو اضطرت «تل أبيب» إلى اتخاذ موقف لا يتوافق مع السياسة الأمريكية «تركيا وإيران والحبشة والصين وتايوان وجنوب إفريقيا» هى النماذج الواضحة، ولكنها ليست الوحيدة.

الهدف الثانى : وهو تثبيت الوجود الإقليمى فى بداية الوجود الإسرائيلى، وحتى عام 1956 الهدف يتبلور حول الحصول على الشرعية الإقليمية. ولكن عقب 1976 تطور هذا الهدف تدريجيًا، ليصير ليس مجرد اعتراف بالوجود الإسرائيلى، بل تقبُّل لهذا الوجود على أنه ينتمى حضاريًا إلى المنطقة. إنه مجرد مقارنة بين خطاب «شاريت» فى بداية الخمسينات وهو يدافع عن الطبيعة الغربية والتوجه الحضارى الغربى لدولة إسرائيل، و«مناحيم بيجن» فى إجاباته على الرئيس «السادات»، وهو يعلن أن إسرائيل هى دولة شرق أوسطية، تنتمى إلى هذه المنطقة تاريخيًا، وهى جزء من التاريخ الحضارى لدولة الفراعنة، حتى أنه يصف هؤلاء الفراعنة بأنهم أجداده، نقنع بذلك التحول الخطير. وسوف نرى فيما بعد الأسباب الحقيقية التى تسير خلف هذا التحول ونتائجه على إدارة الصراع.

الهدف الثالث : استنصال الوجود الفلسطينى يصير هدفًا ثابتًا فى كل قيادة إسرائيلية. أسباب ذلك واضحة... فمما لا شك فيه أن وجود دولة فلسطينية مستقلة، يعنى وجود منافس حول الشرعية المرتبطة بالأرض التى تعيش عليها إسرائيل، وحيث إنه من الواضح أن البلاد العربية لحظة التنافس لا يمكن أن تقف إلى جوار إسرائيل ضد فلسطين، فمن المنطقى أن تجعل «تل أبيب» أحد أهدافها الثابتة منع مثل ذلك التواجد من أن يكتمل، ويحصل على أى شرعية، وهى لذلك تحارب ـ ليس فقط أى اعتراف دولى بالشعب الفلسطينى، بل وأى تنظيم أو أداة تسمح للقدرة الفلسطينية أن تكون لها أية فاعلية. ولكن ما هو أخطر من ذلك، أن هناك سياسة إسرائيلية ثابتة أساسها استيعاب الشعب الفلسطينى:

أ ـ فى أول الخطوات هى تسعى لاستيعاب الفرد معنويًا وحضاريًا، سواء بتدعيم عدم

(1) وقد استخدمت الحكومات الأوربية الأقليات غير الإسلامية فى إشاعة الفتنة الطائفية فى ربوع الدولة العربية لتمزيقها، وهذا هدف ثابت فى استراتيجية العدو حتى الآن، والدليل ما حدث فى السودان وجلسات الاستماع التى عقدتها لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى عن اضطهاد الأقباط فى مصر فى زعمهم.

الاحترام والقناعة والانتماء العربى، أو بخلق الإعجاب بالحضارة اليهودية والسعى نحو تقبل المواطن فى ذلك الكيان الحضارى المختلف والمتميز عن التاريخ العربى.

ب ـ وهى تخطو عقب ذلك خطوة خطيرة، حيث تخالف نفس مبادئ النقاء اليهودى بتشجيع زواج العربى باليهودية ـ وبصفة خاصة اليهودية الشرقية. إن هذا يعنى فى الأمد القريب القضاء على العنصر الفلسطينى؛ لأن أبناء مثل هذه الزيجة ـ بقوة القانون ـ يعتبرون ليس فقط من أبناء إسرائيل، بل ومن الأصل اليهودى.

جـ ـ ثم هى لا تتردد فى الاستئصال العضوى، تقرير «كينج» الذى يعود إلى أكثر من عشرة أعوام يوضح الأساليب وأكثر من زعيم واحد فى الفترة الأخيرة دعا إلى ذلك صراحة، ويجب أن نتذكر أن الاستئصال لا يعنى القتل، فهناك وسائل أخرى فى حكم القتل كالطرد أو التشجيع على الهجرة الدائمة. يكمل ذلك.

الهدف الرابع : المتعلق بتجزئة الوطن العربى كذلك، فإن التوظيف الثابت للأداة الإسرائيلية فى النطاق الدولى، ليس له من هدف سوى استغلال ذلك فى إدارة الصراع مع الدول العربية. ويصير توظيف التوازن بين الدولتين الأعظم امتدادًا طبيعيًا لتلك الاستراتيجية. إن إسرائيل لا تؤمن بالقوى الدولية، ولكنها تستخدم تلك القوى الدولية فى تحقيق أهدافها.

رغم أن إسرائيل توصف بأنها فى بعض الأحيان وجدت نفسها فى عزلة دولية، ولكن هذا الحديث لا يعبر عن عمق فى تحليل التطورات المختلفة فى الإطار الدولى. المهم هو موقف تلك القوى، فهى فى النهاية ـ وهى فى مجموعها ـ لا تقف إلى جوار القضية العربية، بل تنظر إليها باستخفاف أو على الأقل بسلبية تدعو إلى الحيرة والتساؤل.

هذه المبادئ فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى لم تختلف قبل مجىء «بيجن» عنها عقب ترك «بيجن» للسلطة، دون الحديث عن أنها ظلت مسيطرة على مفهوم إدارة «بيجن» لذلك الصراع، ولكن هل معنى ذلك أن «بيجن» لم يملك مفهومًا متميزًا لإدارة الصراع؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن نسعى لتناوله بإيجاز.

مفاهيم مناحيم بيجن وإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى:

النقطة الأساسية أن السياسة الإسرائيلية ثابتة وواحدة فى إدراكها وتعاملها مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى. ويجب ألا تخدعنا بعض الأقوال أو التصريحات التى قد تخلق القناعة بغير ذلك.

أولا ـ فيجب أن نتذكر أن إسرائيل تمارس لعبة توزيع الأدوار ببراعة واضحة، وهى لذلك قد تدعو شخصًا أو قوة بالتظاهر بالاعتدال أو بقبول مبدأ معين، وهى لا تعنى سوى

عملية تهدئة مؤقتة. ولنتذكر أن «وايزمان» الذى كان يزور الإسكندرية ويقدم الخضوع والاعتدال للرئيس «حسنى مبارك» لم يكن سوى أداة حاسمة فى التصور الصهيونى بأقصى تطرفه على سبيل المثال.

ثانيا ـ كذلك فإن إسرائيل تؤمن بمبدأ المرونة، التقدم خطوتين والتراجع خطوة.. إن ما حدث فى الفترة الأخيرة هو أنها تتقدم بأن تقفز وثبة واسعة لتعود فتتراجع خطوة قصيرة.

ثالثا ـ أنه علينا ألا تخدعنا تصريحات المسؤولين الإسرائيليين، وهم فى خارج السلطة ما أن يصلوا إلى كرسى الحكم حتى تتغير مواقفهم ويعودون إلى الخط التقليدى[1]. وقد حدث هذا فى أكثر من مناسبة «موشى دايان»، بل ونفس «مناحيم بيجن» نماذج صريحة.

هذا الثبات والتواصل فى السياسة الخارجية الإسرائيلية لا يتصل فقط بالماضى، بل هو أيضًا ثابت ولن يتغير فى المستقبل. جوهر هذه السياسة ـ فى حدها الأدنى ـ هو تفتيت الإرادة العربية وتحطيم هذا الكيان وتطويعه لخدمة الأهداف الإسرائيلية.

يبقى أن نتساءل: هل هناك عناصر جديدة حملها «مناحيم بيجن» معه فى وصوله إلى السلطة؟ وما هو مستقبل هذه العناصر الجديدة؟

نستطيع أن نمركز حول العناصر التالية المفهوم الإسرائيلى المعاصر لإدارة الصراع فى المنطقة:

أولا ـ استخدام القوة والعنف إلى أقصى حدوده فى التعامل مع دول المنطقة، وفى كل ما له صلة بإدارة الصراع.

ثانيا ـ إعلان الأهداف الحقيقية عن التعامل والعدول نهائيًا عن محاولة التغطية أو التمويه على تلك الأهداف.

ثالثا ـ التعامل مع المنطقة على أنها المسرح الطبيعى للسيادة الإسرائيلية، حيث الدولة اليهودية هى دولة شرق أوسطية.

رابعا ـ استخدام مصر كأداة للتواصل الإسرائيلى العربى.

خامسا ـ التعامل مع الإطار الجديد الدولى فى العلاقة بين «موسكو وواشنطن»، بحيث تستطيع «تل أبيب» أن تصير وسيطًا بين العملاقين، وبحيث إن كلاهما ينتهى بأن يساند الأهداف الإسرائيلية.

سادسا ـ الاستعداد للحرب القادمة.

---

(1) ليس أدل على ذلك ما يفعله الرئيس الحالى للوزراء الإسرائيليين «نتنياهو» من نقضه للعهود والمواثيق التى قطعها سلفه، وكذلك وصول مسيرة السلام إلى طريق مسدود. لقد تحقق كل ما أخبر به حامد ربيع. والعدو يواصل تحقيق أهدافه دون مقاومة. وصدق من قال: «وقطعت جهيزة قول كل خطيب» (أكتوبر 1998).

فلنتابع هذه العناصر المختلفة فى المفهوم السائد لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى الذى تغلغل فى الإدراك السائد فى «تل أبيب» عقب وصول «مناحيم بيجن» إلى السلطة، والذى لا يزال سائداً فى القيادات المسؤولة حتى هذه اللحظة.

أول هذه العناصر هو استخدام القوة والعنف. والواقع أن هذا العنصر ليس جديداً فى التقاليد اليهودية، هو رد فعل ثابت فى جميع مراحل التاريخ اليهودى، ولكنه يصل إلى القمة مع «مناحيم بيجن»، ولن نستطيع فهم حقيقة السياسة التى تبعتها إسرائيل منذ وصول «ليكود» إلى الحكم إلا إذا عدنا إلى الأقطاب الثلاثة الذين تحكموا فى السلطة السياسية خلال تلك الفترة. هم ثلاثة رغم اختلاف خصائص كل منهم، إلا أن الذى يجمعهم ويربط بينهم أمران أساسيان:

الأول ـ الطبيعة الإجرامية، **والثانى** ـ القناعة بالسمو والتفوق اليهودى.

فلنترك جانباً العنصر الثانى ولنقف إزاء العنصر الأول، ولو فى عجالة سريعة.. «مناحيم بيجن» إرهابى قديم، ماضيه الإجرامى أضحى موضع توثيق من جانب مؤرخين يهود لهم اعتبارهم... فلنذكر على سبيل المثال العالم الأمريكى «برينيز» وهو فى هذا أمين لتعاليم أستاذه «جابوتنسكى». كذلك «**إسحاق شامير**» **الذى خلف «مناحيم بيجن» فى عام** 1983، **والذى أضحى موضع الثقة أنه كان نازيا، وتعامل مع أنصار «هتلر» قبل الحرب العالمية الثانية**[1]، **ويكمل هذا «شارون» الذى ليس فى حاجة إلى تعليق. الأمر الذى يجب أن نضيفه، هو أن هذا الثلاثى كان لابد وأن يقود إلى مذابح «صبرا وشاتيلا»، والتى تعبر عن حقيقة مشاعرهم نحو الأرض العربية ومن ينتمى إلى تلك الأرض.**

فلنستمع إلى الحوار التالى الذى تم بين «مناحيم بيجن» والمحقق الإسرائيلى بخصوص جريمة الذبح التى ذهب ضحيتها حوالى 2000 من النساء والأطفال والشيوخ فى معسكر «شاتيلا».

قال «كالهان» رئيس لجنة التحقيق: هل أخبركم «شارون» بأى شىء بخصوص دور الكتائب؟

---

(1) للمعلومية : تسبب اليهود فى نشوب الحربين العالميتين، الأولى والثانية، ونجحوا في إيهام الإنجليز أن الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا لابد أن تعود بالخير العميم، وخاصة بعد اقتسام المستعمرات الألمانية منها!! وتنخدع بريطانيا وتخوض الحرب: 1914 ـ 1918، وحقق أثرياء اليهود النتيجة الفعلية ـ لهذه الحرب أرباحاً خيالية على حساب دماء ملايين الإنجليز والأمريكان والفرنسيين، ولابد لنا من إيراد ما يثبت هذا الأمر؛ ليكن الدليل من أفواه اليهود أنفسهم... يقول اليهودى «أوسكال ليفى»: «الحرب الأولى قامت لتحقيق سيطرتنا على العالم... ثم يقول: العناصر اليهودية أساس الرأسمالية والشيوعية. نحن الذين اخترعنا حكاية الشعب المختار، والذين نصّبنا أنفسنا مخلِّصين للعالم، ونتباهى بخروج المسيح منا، لسنا اليوم سوى مفسدين له ومدمرين. نحن الذين وعدنا أن نقودكم إلى الجنة والسعادة، نقودكم فعلاً إلى الجحيم الجديد». «حقيقة اليهود» فؤاد بن سيد عبد الرحمن الرفاعى ـ الكويت ـ الصفا ـ ص 67؛ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. جارودى.

بيجن : ذلك الدور كان واضحًا . أن يحاربوا الإرهابيين ـ أى الفلسطينيين.

المحقق : طبقًا لما تقوله الآن، فأنت تعلم يوم الأربعاء صباحًا أن الكتائب كان عليهم أن يحاربوا.

بيجن : إذا كان وزير الدفاع قد أبلغنى ، فإننى قطعًا كنت أعلم.

المحقق : متى حدث لأول مرة أن نوقش معك موضوع الدور الذى كان يجب أن تقوم به الكتائب؟

بيجن : هذا عرفناه فى اجتماع مجلس الوزراء.

المحقق : ألم يكن مقتل «بشير الجميل» مما كان يجب أن يبعث على الاعتقاد بأنه فى ذلك الوقت ما كان يجب أن تدعى الكتائب للتدخل؟

بيجن : إن هذا لا يعنينى.

وهكذا بينما «بن جوريون» يلجأ إلى العنف كوسيلته الأخيرة وبشىء من الخجل جاء «مناحيم بيجن» ليجعل من استخدام العنف فخرًا يتغنى به فى كل مناسبة.

العنصر الثالث وهو ضرورة الإعلان الواضح الصريح عن الأهداف الحقيقية. وهذا أيضًا من تقاليد «جابوتنسكى» الذى اختلف مع «بن جوريون» فى الكشف عن حقائق الحركة الصهيونية بطبيعة الحال ـ مثل هذا التصور يضعف من حرية الحركة ومرونة التعامل التى هى أحد عناصر التقاليد الصهيونية. ولكنه أيضًا يفصح بوضوح عن الجمود الذى يميز حزب «حيروت». وليس علينا إلا العودة إلى خطاب «مناحيم بيجن» فى مواجهة «السادات» لنكتشف بوضوح هذا الجمود. والغريب أن هناك من القيادات العربية من لا يزال يتحدث عن إمكانية تحقيق سلم.[1] دائم وعادل مع هذه القوى المتحكمة فى القيادة الإسرائيلية على أن أخطر العناصر الجديدة التى يقدمها تكتل «ليكود» وهو اعتبار إسرائيل دولة شرق أوسطية.

لقد ظلت القناعة السائدة فى الإدراك القيادى أن إسرائيل دولة غربية، وتمثل الحضارة الغربية، قد زرعت فى قلب العالم العربى. عقب هذه الفلسفة تعيش اليوم تصورًا مختلفًا، فإسرائيل تنتمى تاريخيًا وحضاريًا إلى منطقة الشرق الأوسط. وهى لذلك دولة شرق أوسطية ومدعوة لتؤدى وظيفة قيادية فى تلك المنطقة: إنها تحضر عالم الشرق الأوسط

---

(1) لا ندرى أى سلام هو مع هؤلاء القوم الذين أثبت التاريخ أنهم لا عهد لهم ولا أيمان عندهم ولا حفاظ على ميثاق. وقد قال الله ـ عز وجل ـ عنهم وعن أمثالهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: 217)، ثم يأتى بعد ذلك من يقول: سلام.. دائم.. وعادل مع هؤلاء؟!

وتقوده إلى مستوى حضارى جديد، وهى بهذا ـ أى الدولة اليهودية ـ إنما تؤدى وظيفة اختارتها لها العناية الإلهية. وهذا هو دور القدس التى تحل تاريخياً موضع «روما» فى قيادة هذه المنطقة معها حضارة البحر المتوسط. وهكذا لم يعد كتاب «الدولة اليهودية» «لهرتزل» هو قاموس الصهيونية الجديدة، ولكن كتاب «موسى هس»: «روما والقدس» هو الذى يمثل عصر الفكر الصهيونى السائد.

العنصر الرابع ـ الذى يأتى ويكمل العنصر السابق، وهو توظيف مصر فى ذلك الإطار الإقليمى، أن تاريخ المنطقة هو صراع بين نموذجين. الأول المصرى، والثانى الإسرائيلى. منذ عام 1948 يقول أنصار هذا التصور فى الفكر الإسرائيلى: عاشت المنطقة صراعين أساسيين: صراع عربى ـ إسرائيلى، وصراع عربى ـ مصرى. الصراع الثانى كان محور رغبة مصر فى السيطرة على المنطقة فى عام 1967، فشلت مصر فى كلا الصراعين. لقد كان أمل مصر هو أن تجمع العرب تحت قيادتها، تهزم إسرائيل ثم تخضع العالم العربى لقيادتها. الفشل والسلم فتح أمام إسرائيل باباً جديداً. الصلح بين مصر وإسرائيل سوف يحرر مصر من الصدام مع إسرائيل، وهى من ثم تستطيع أن تحقق سيادتها على العالم العربى تحت مظلة إسرائيلية.

وهى بهذا تعيد قصة «إيران»، ولكن ليس لصالح «الولايات المتحدة»، ولكن لصالح إسرائيل، وليس من منطلق الهيمنة فقط، ولكن من منطلق التسلل والتوظيف الاقتصادى وغير الاقتصادى.

ولكن هل مصر والقيادات العربية على وعى بذلك ؟

ولنتذكر أن هذا التصور كشفت عنه مراكز الدراسات الاستراتيجية الأمريكية، وبصفة خاصة مركز «جون هوبكنز» منذ عام 1973 «فى الوثيقة رقم 20 التى وضعها العالم الأمريكى «ساموبل روبرنز».

العناصر الأخرى واضحة ليست فى حاجة إلى تفصيل.

الثابت والمتغير فى الفلسفة الإسرائيلية لإدارة الصراع:

والخلاصة التى يجب أن نقف أمامها بشىء من التدبر ، تنطوى نحو ثلاثة بنود أساسية:

أولا ـ فلسفة إدارة الصراع من الجانب الصهيونى لم تتغير منذ وجدت الدولة حتى اليوم إنها تخضع لقواعد واحدة فى جوهرها، وليست موضع خلاف حقيقى أيًا كانت القيادة التى تسيطر على السلطة.

ثانيا ـ أن «مناحيم بيجن» أحدث نوعًا من إعادة التشكيل لهذه الإدارة، ولكن هذا لا

يتناول القواعد الإجرائية المتعلقة بالتعامل مع الوطن العربى. إنه يتناول فقط بعض الأبعاد المرتبطة بنظام القيم السائدة فى السياسة الإسرائيلية، وهى فى مجموعها تأكيد مبالغ فيه أو معالجة بتطرف لنفس القواعد التى سيطرت على مفاهيم «بن جوريون».

ثالثا ـ هناك ناحيتان رغم ذلك يبرز بخصوصها واضحًا الخلاف بين «بن جوريون ومناحيم بيجن» الأولى المتعلقة بالنظرة إلى إسرائيل على أنها دولة شرق أوسطية والثانية المرتبطة بتوظيف مصر فى التسلل إلى منطقة الشرق الأوسط. تحليل هاتين الناحيتين فى حاجة إلى وقفة تأمل أكثر تفصيلاً. ولكن الأمر الذى يجب أن ندخله فى الاعتبار. هو ضرورة الوعى بما يعنيه ذلك فى التصدى للجانب الصهيونى فى إدارة الصراع.

هذا الإدراك هو السائد أيضًا اليوم عقب اختفاء «مناحيم بيجن».

كيف التعامل معه؟

هذا هو السؤال الذى كان يجب أن يطرحه القادةالعرب من خلال لقائهم فى مؤتمر «الدار البيضاء».

فهل حدث ذلك؟

وما هى الإجابة العلمية التى يجب أن نقدمها لتلك القيادات؟

سؤال آخر لم تحن بعد الإجابة عليه».